من السيرة العطرة

النبي ﷺ رحيما

تأليف
نشأت المصري

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد

السيرة العطرة

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد
العنوان :٢٣ ش سكة المدينة ناهيا - إمبابة - جيزة
تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢
رقم الإيداع : ٨٣٢٧ / ٩٩
الترقيم الدولي : 5 -38 - 5819 - 977
رسوم : ماهر عبدالقادر
خطوط : مصطفى عمرى

الطبعة الأولى
صفر ١٤٢٠ هـ - يونيو ١٩٩٩م

يقول تعالى لنبيه الكريم – عليه الصلاة والسلام – :
﴿ ومَا أرسلناكَ إلا رَحمةً للعَالَمينَ ﴾ [1] .

ويقول الرسول ﷺ عن نفسه : « إنَّما أنا رحمةٌ مهداة » .

---

(1) الأنبياء : ١٠٧ .



الباب الأول

فى رحاب الرحمة

توطئة

إن الرحمة من الصفات التى يوصف بها الله - سبحانه وتعالى - ويوصف بها الإنسان ، فإذا نظرنا إليها باعتبارها صفة لله تعالى ، كان معناها الصفة التى بها الإنعام والتفضل والإحسان ، أما إذا نظرنا إليها باعتبارها صفة للإنسان ، فإن معناها الرقة فى القلب والتعطف .

بهذا العرض الموجز الشامل ، أحاط الدكتور عبد الحليم محمود بمعانى الرحمة.

وتحت جناحى الرحمة تنمو وتترعرع الكثير من الفضائل ، ولا يمكن أن نتصور حال الناس والدنيا وقد خلت من الرحمة ، فإذا خلت النفوس من الرحمة جفّت وتشققت ، وأصابتها الغلظة ، وآذت نفسها قبل أن يمتد أذاها إلى غيرها .

إن الرحمة ليست مجرد فضيلة طيبة ؛ ولكنها ضرورة حياة ، فهى دواء لا يغنى عنها دواء ، تشفى النفوس مما تكابده ، وتفتح نوافذ الأمل أمام أسرى اليأس والاكتئاب .

وليست الرحمة دائماً هى تلك الزهرة الرقيقة ، التى يتلقاها الإنسان أو تلك اليد الحانية التى تربت على ظهورنا ، فقد تكون مشرطاً

يستأصل ورماً فنتألم وننزف دماً ، فالرحمة هنا مصحوبة بالألم والمعاناة، من أجل هدف أبعد وأهم وهو الشِّفاء.

وما من مرحوم إلا وهو محتاج لمزيد من الرحمة ، والرحمة عند الإمام أبى حامد الغزالى هى إضافة الخير على المحتاجين ، والرحمة العامة هى التى تتناول المستحق وغير المستحق .

* * *

رحمة الله ورحمة الإنسان

رحمة الله هى رحمة تامة عامة ، فهى تشمل المستحق وغير المستحق، وتعم الدنيا والآخرة ، والله - سبحانه وتعالى - يختص باسم الرحمن وحده لا يشاركه فيه أحد، بينما « الرحيم » قد يُطلق على غير الله ، وهذا يعنى أن رحمة الرحمن تكون أبعد من قدرة العباد ، وتمتد إلى سعادة الإنسان فى الدار الآخرة ، فالله رحمن بمعنى: أنه خلقنا وهدانا إلى الإيمان وحقق لنا السعادة فى الآخرة ومتّع من حظى برحمته ورضاه بمشاهدة وجهه الكريم .

أما حظ الإنسان من اسم « الرحيم » فهو أن يسد حاجة غيره من المحتاجين بقدر طاقته ، وأن يستخدم جاهه وماله للقضاء على فقر الفقراء ، وإن لم يملك المال لجأ إلى الدعاء لهم والحزن من أجلهم .

والله الرحيم قادر على رد كل بلاء عن عبيده ، وإزالة كل ضرر يلحق بهم ، فعندما خلق الله الخلق كتب وعد الرحمة وعداً مطلقاً كقدرته ، ويقول تعالى فى حديثه القدسى ؛

« لما قضى الله الخلق ، كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتى سبقت غضبى»[1].

ونحن نشهد رحمة الله بنا فى كل شىء ، حين نتكلم ، نسمع ،

(١) أخرجه البخارى فى كتاب « التوحيد » .

نتنفس ، نفكر ، نضحك ، نأكل ، نتحرك ، نُرْزق ، نسعد ، نتذكر ، نزرع ، نحصد ، نكبر ، نمرض ، نشفى .

ونحن لا ننسى تلك المعانى جميعاً ، ونحن نقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فى بداية كل سورة ، يريد الله أن يذكرنا بهذه المعانى ، فلا تغيب عن عقولنا وقلوبنا ولكى نظفر بالرحمة يرنو الإنسان إلى أن يتخلق بخلق القرآن، ومن رحمة الله بنا وفضله علينا أن وهبنا القدرة على أن نتراحم، ويكون للرحمة فى قلوب البشر مكان .

يقول النبى ﷺ : « إن الله يحب من عباده الرحماء ، فارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

صدقت يا رسول الله .

صدقت وكنت مثالاً غنياً كاملاً لهذه المعانى ، فكنت الرحمة المهداة، وكنت كما شاء المولى أن تكون ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحمةً للعاَلَمِينَ** ﴾[1] .

وعندما نتصفح هذا الجانب من السيرة النبوية العطرة ، الذي يفيض رحمة وتراحماً لا بد أن نسأل أنفسنا ، أين نحن من معنى الرحمة قولاً وفعلاً ؟! .

فعلى قارعة الرحمة ليتنا نقف عمرنا كله ، نبدأ بأن يرحم الإنسان نفسه ، فيسمو بها ، يطهرها ، وكل لحظة تمر نقترب من روضة الرضاء الإلهى .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

يرحم الإنسان نفسه ، ويرحم الناس ، يتعهد الفقراء بماله وجاهه ، يصبح دعوة للحب فى الله بين البشر .

فالرحمة خُلُقُ الإسلام .

ولنا فى نبى الرحمة مثال يُحتذى .

والرحمة ليست مجرد ضرورة ، لكنها فى تقديرى حق من حقوق الإنسان ، أكثر أهمية من حق الحرية والعدل والعلم والشورى والمسكن والغذاء ؛ لأنها إن توفرت كان من اليسير إرساء حقوق الإنسان جميعاً وفقاً لفلسفات البشر .

* * *

نبى الرحمة

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ من أنفُسكُمْ عَزِيزٌ عَليه مَا عَنتمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤْمنينَ رءوفٌ رَحيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوا فقلْ حَسبىَ الله لا إلَهَ إلا هُوَ عَليه تَوكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيم ﴾ [1] .

ولأن الرحمة ضرورة حياة . . فقد جعلها الله - تعالى - هدفاً للرسالة الإسلامية ، وجعل الرحمة معنى عاماً ، يتسع لكل الناس من الفئات والألوان والمراتب .

يقول تعالى لرسوله الكريم ﷺ : ﴿ ومَا أرْسَلناكَ إلا رحمةً للعَالَمينَ﴾ .

إن تعبير « العالمين » ينسحب على الإنسان وغير الإنسان . . ويوضح النبى ﷺ إحدى صفاته التى تصدق عليها أعماله فى هذا العالم قائلاً : « إنما أنا رحمة مهداة » .

وتصف السيدة خديجة رضوان الله عليها النبى وصفاً يُفصِّل هذا المعنى : «إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وتفصح سيرته العطرة عن شمولية المعنى « رحمة للعالمين » حيث انطوت على رحمته للحيوان أيضاً ، فذات يوم مر على بستان رجل من

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

الأنصار ، فدخله فإذا جمل يئن وتذرف عيناه ، فأتاه النبى ﷺ فمسح عليه ، فسكت ثم قال - عليه الصلاة والسلام - :

من رب هذا الجمل (أى صاحبه) . فجاء فتى من الأنصار فقال : هذا لى يا رسول الله .

فقال له النبى ﷺ : « ألا تتقى الله - عز وجل - فى هذه البهيمة ، التى ملكك الله إنك تجيعه وتدئبه : (أى تتعبه) ؟ » .

فخجل الشاب الأنصارى وكف عن إيذائه للجمل .

ومن ثمار رحمة الإنسان بالحيوان التى يلفتنا النبى الكريم إليها ، ما جاء فى حديثه الشريف :

« بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له » .

وقالوا : يا رسول الله إن لنا فى البهائم أجْراً ؟ فقال : فى كل كبد رطبة أجر . » [1] .

ويؤكد النبى الرحيم شمولية الرحمة فى مناسبات شتى :

---

(١) رواه ابن حبان ومالك والبخارى ومسلم وأبو داود .

فقد حدث أن بعض الصحابة قالوا للنبى ﷺ : « إننا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا » . فلم يعجبه هذا القول لمحدودية دلالته فرد بقوله : «ما هذا أريد ، إنما أريد الرحمة العامة » .

ويرهبنا النبى ﷺ من التخلى عن الرحمة قائلاً : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (١) .

كما يرغبنا فى أن نكون رحماء لنكون من الفائزين ، يقول فى حديثه الشريف:

« الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٢) .

ورحمة الإنسان بنفسه - كما يقول د. عبد الحليم محمود - تتلخص فى كلمتين : عمل ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى الله عنه .

ويجىء فى مقدمة رحمة الإنسان بغيره صلة الرحم ، التى تبدأ بالوالدين .

يقول النبى ﷺ فى حديثه ، الذى هو تعليم وتعاليم للبشرية فى كل وقت :

« إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن حبان . (٢) رواه أبو داود والترمذى .

وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب ؟ . قال : فهو لك . قال رسول الله ﷺ : « فاقرءوا إن شئتم » :

﴿ فَهَلْ عَسَيتُمْ إِنْ تَوَلَّيتُمْ أَن تُفْسدوا فى الأرضِ ، وَتُقَطِّعوا أرْحَامَكُمْ * أولئكَ الّذين لَعَنَهُم اللهُ فأصَمَّهم وَأعْمَى أبْصَارَهُمْ ﴾ (١) .

ويبين النبى ﷺ مدى الفوز الذى يحققه من يصل الرحم يقول : «من أراد أن يبارك الله له فى رزقه وأجله وعمله فليصل رحمه » ومن الرحمة العامة الرحمة بالجار ، ومن الأحاديث النبوية التى تحض على ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - :

« ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

ويقرن النبى الكريم الإيمان بالرحمة يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحموا» .

قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم . فقال : « إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » (٢) .

والرحمة سلوك متبادل ، ينتهى بوحدة المؤمنين ووحدة مصيرهم ، وبتكافلهم وإحساسهم بمسئولية كل عن أخيه فى الإسلام .

يقول الحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(٤) .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه الطبرانى .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه البخارى ومسلم .

والرحمة انشغال بأحوال الناس ، وتقدير لظروفهم ، حتى فى أثناء أداء العبادات ، يقول - عليه الصلاة والسلام - : « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف ، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء » (١) .

ويقدم النبى - عليه الصلاة والسلام - للمسلمين دستوراً موجزاً ، ليصل المسلمون إلى غاية القوة والرحمة يقول :

« لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعِرضه » (٢) .

حقاً . . . إننا نعيش فى ظل الرحمة المهداة .

لقد كان النبى ﷺ رحمة لكل البشر ، بمجرد أن بلغ الرسالة وجعلنا نحيا فى ظلال القرآن الوارفة وننعم بثوابه .

وتجىء بعد ذلك فيوض رحمته ، التى أغدقها على المحيطين به ، والتى نَتَنَسَّمها من سيرته العطرة بالاقتداء بها .

* * *

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه مسلم .

الرحمة فى عصرنا

إن الرحمة ثمرة كبيرة من ثمرات الإيمان ، كما أنها إحدى مقومات القوة الرئيسية. . . ، وحين نجد أنفسنا قد افتقدنا الكثير من قوتنا المادية والمعنوية والروحية ، فهذا يعنى أن رصيد الرحمة فى قلوبنا ضئيل ضئيل، فسادت القسوة والغلظة سلوكيات الأقوياء الأشداء القادرين ، وتفجر الحسد والحقد فى قلوب الضعفاء والمساكين ، وغلى القدر بما فيه وانشغلنا بغليانه عن أسبابه .

إن من يرى أحوال المسلمين فى هذا العصر ، على هذا المستوى المخيف من الضعف والمهانة ، والذل الذى يشربونه بأيديهم وبأيدى الغرباء الطامعين . . يعرف أننا تخلينا عن دستور سيد الخلق أجمعين ، وخلت قلوبنا من الرحمة فتفرقت قوانا وذهبت بدداً .

وما أحوجنا اليوم إلى أن نعيد حساباتنا مع أنفسنا ، مع أهلينا ، مع قادة الرأى فينا ، مع أولى الأمر منا ، لنرجع هذا البنيان المرصوص الواحد ، الذى قهر جبابرة الأرض من الروم والفرس والصليبيين وغيرهم . . .

ولنضع أيدينا من الآن على لبنة الرحمة ، نتلمسها بمعايشة نفحات من سيرته العطرة نبياً رحيماً .

* * *



الباب الثانى

النبى ﷺ رحيماً فى بيته

مع أزواجه - عليه الصلاة والسلام -

إن الحياة الزوجية هى إحدى الدعائم الكبرى ، التى تقوم عليها حياة الإنسان، وتنظم من خلالها مشاعره وعلاقاته وبنيته النفسية ، ولا ينفصل سلوك الإنسان فى حياته الزوجية عن سلوكه العام مع الناس ، فالنبع واحد والقيم التى يحيا الإنسان بها واحدة فى كل الأحوال .

وحين يتخلق الإنسان بخلق طيب ، فأولى الناس بالتعامل من خلال هذه القيم هم الأهل والأقربون ، وفى مقدمتهم الزوجة ، التى تقاسم الإنسان مصيره ومسيرة حياته بآمالها وأحلامها وأحزانها وأفراحها .

وقبل البعثة المحمدية ، كان حظ المرأة فقيراً من مشاعر الرجل واحترامه ورحمته بها ، وينسحب ذلك على العلاقة بين الزوج وزوجه ، أما النبى ﷺ فقد هيأه الله منذ وُلدَ ليكون على الفطرة السليمة ، فكان سلوكه قبل الإسلام مثالاً للقيم النَبيلة، وكانت حياته الزوجية مع السيدة خديجة - رضى الله عنها - قبل الإسلام (نحو ١٥ عاماً) وما بعده نموذجاً رائعاً للحياة الزوجية وداً واحتراماً ورحمة ، وهكذا كان شأنه مع بقية أمهات المؤمنين .

وتأكيداً لهذه المعانى يوصينا بالنساء فى خطبته ، فى حجة الوداع ، ومَنْ منا لا يحب أن يلتزم بوصايا الرسول الحبيب . . . إن وصيته ترقى لمستوى الأمر لدى محبيه ، وكلنا من محبى الرسول الكريم يقول فى حديثه الشريف : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً » .

ولأن النبى - عليه الصلاة والسلام - هو المثل الأعلى ، ولأنه كان قرآناً يمشى على الأرض ، فنحن نجد فى سيرته العطرة تجسيداً للأوامر القرآنية: يقول تعالى:

﴿ **ولَهُنَّ مثلُ الَّذى عَلَيْهنَّ بالمعْروف** ﴾ [1] . وكانت كلمات النبى مصداقاً لأفعالَه. « وَإن لكمَ منَ نسائكمَ حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً» .

وهذا الحديث هو فى المقام الأول تنبيه للرجل إلى واجباته نحو المرأة وإلى حقوقها عليه ، لأن الجانب الآخر من الحديث كان واقعاً بالفعل ، وهو ما يناله الرجل من حق له على المرأة .

لقد جاء الإسلام فكرم المرأة ، واستنقذ حقوقها من براثن الجاهلية ، ورتب لها حقوقاً لم تعرفها من قبل فى العالم شرقه وغربه ، وساوى بين النساء فى الحقوق بغض النظر عن نسبهن وحسبهن وثرائهن ، كما نظم علاقتها بالرجل تنظيماً دقيقاً ؛ يكفل نجاح الأسرة المسلمة وقيامها على التواد والتراحم ، ويمنع جور الرجل على المرأة .

وكانت علاقة النبى ﷺ فى بيته بالنساء تقوم على الرحمة فى أجمل معانيها. . . بل إن زواجه - عليه الصلاة والسلام - من بعض أمهات المؤمنين كان دافعه الأول هو الرحمة على النحو الذى سنراه تفصيلاً .

فلنقف عند قطوف من حياته - عليه الصلاة والسلام - معهن ، وكيف كانت لمسات الرحمة تظلل حياته الزوجية ؟! .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

● **مع السيدة خديجة - رضى الله عنها - :**

لا تحدثنا الأخبار كثيراً عن حياة الزوجين محمد وخديجة قبل البعثة، لكن ما حدث بعد ذلك من تصديق السيدة خديجة لما جاء به الرسول ﷺ وصبرها ومثابرتها على طريق الدعوة الشاق . . كل ذلك يعكس ما كانت عليه حياته الزوجية قبل الوحى ، فلا بد أن التقدير والاحترام المتبادل كان يجمعهما ، وأن الوفاء والثقة والتفاهم والتراحم كانت من تفصيلات حياتهما المعتادة .

ولو لم يكن محمد ﷺ قد عاش معها ، رحيماً بها ، لَمَا أيّدته كل هذا التأييد وضحت كل تلك التضحيات ، فقد رأت منه الرحمة والصدق ، فصدّقت وآمنت وأعطت الكثير .

ولنا أن نرجح أن النبى - عليه الصلاة والسلام - حينما لمس مدى المعاناة والعبء الواقع على زوجته خديجة من مشاركته فى آلامه والصبر على جحود قريش وإيذائها له ، حاول أن يخفف عنها ، فكان يحدثها عما يلقاه بما يوحى بالتفاؤل رحمة بها، وحتى لا يستولى اليأس عليها .

إن إشاعة التفاؤل رحمة بأهل البيت ، لأن الزوج المتفائل ينشر الثقة والإقبال على الحياة فى عروق أهله ، فالرضا والتفاؤل أسلوب حياة يضىء حياة الزوجين، وينتقل أثره الحميد سريعاً من الزوج إلى الزوجة والأبناء ، فيحمى الأسرة من رعونة العواطف ، فالتفاؤل أسلوب إيمانى، لأنه مبنى على تسليم الأمر لله تعالى والتوكل عليه ، وكذلك

التماس الأسباب للتخفيف من غائلة الحزن ، فماذا قال النبى ﷺ للسيدة خديجة يوم وفاة ولدهما « القاسم » الذى مات بعد عام تقريباً من ولادته أى قبل إتمام سن الرضاعة ، . . . قال لها : « إن له مرضعاً فى الجنة» فقالت : لو أعلم ذلك لهوّن على .

فقال : « إن شئت أسمعتك صوته فى الجنة » .

فقالت : بل أصدق الله ورسوله .

إنها لحظة حزن ، حرك الرسول ﷺ فيها انتباه السيدة خديجة إلى صورة تدعو إلى الرضا مبعثها الرحمة بها وبأحزانها .

وتعبر رياح الأسى القاسية بالسيدة خديجة ، عندما يتزلزل بيت من بيوت بناتها، ولا شك أن الطلاق بالنسبة للمرأة هو من الأمور الحزينة التى لا تتمناها ، وحدوثه عند الضرورة لا يلغى ضيق الأسرة به تجاه نفسها وتجاه المجتمع ، ولا يزال ذلك سائداً حتى الآن - بغض النظر عن أسباب الطلاق - .

إن السيدة خديجة تشهد طلاق ثلاث من بناتها وهن زينب ورقية وأم كلثوم ، وذلك بعد أن دخلن الإسلام وظل أزواجهن على شركهم . . وسياق الأخبار يبين أن هذه الزيجات الثلاث كانت سعيدة وموفقة ، وهذا مما يضاعف وقع حدوث الطلاق على نفس الأم .

لكن يخـفف من ذلك ابتعاد بناتها عن بيوت الشرك ، إلا أنه لا يقضى على مشاعر الضيق التى تكون أكثر كثافة فى قلب الأم ، ويحاول النبى ﷺ بطابع الرحمة أن يمسح عن نفس خديجة الكثير من

ضيقها وحرجها وأحزانها ، وما لبثت إرادة الله أن صححت المسار بما حوّل الضيق فرحاً وسروراً .

فهذه رقية زوجة عتبة بن أبى لهب ، بعد طلاقها منه بإكراه من أبيه وأمه تتزوج من عثمان بن عفان أحد أثرياء الصحابة .

وتلك أم كلثوم زوجة عتيبة بن أبى لهب ، بعد طلاقها منه بأمر أبيه وأمه «حمالة الحطب » تتزوج هى الأخرى من عثمان رضى الله عنه .

أما زينب كبرى بنات النبى ﷺ والتى تزوجت من أبى العاص بن ربيع ، وكانت أمه أختاً للسيدة خديجة ، فقد عاد إليها زوجها بعد دخوله الإسلام .

وامتدت رحمة النبى ﷺ الخاصة بأم المؤمنين السيدة خديجة إلى صديقاتها فاستمر فى الترحيب والبر بهن بعد وفاتها -رضى الله عنها- .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا ذبح الشاة قال :

« أرسلوا إلى أصدقاء خديجة » .

فحدثته فى ذلك ذات مرة فقال : « إننى لأحب حبيبها » [1] .

لقد كان النبى ﷺ رحيماً بها فى موتها ، كما كان رحيماً بها فى حياتها ، دائم الثناء عليها والدعاء لها .

* * *

---

(١) رواه مسلم .

● مع السيدة سَوْدَة بنت زَمْعَة - رضى الله عنها - :

كانت السيدة سودة زوجة لابن عمها السكران من بنى عبد شمس ، وكانت هى وزوجها من الأنصار السابقين إلى الإسلام ، وقد هاجرت معه إلى الحبشة خوفاً من التعذيب والفتنة لإرجاعهما عن الإسلام ، وفقدت السيدة سودة زوجها «السكران » وأصبحت فى مأزق حاد ، فهى أرملة مسنة تبلغ من العمر الخامسة والخمسين سنة ، غير ذات جمال أو ثروة ، تخشى أن تعود إلى أهلها لئلا تُكره على الشرك أو تعذب عذاباً لا تطيقه ولا تتحمله فى هذه المرحلة من العمر .

وفى ذلك الوقت كان النبى ﷺ يحيا وحيداً ، بعد أن فقد السيدة خديجة رضى الله عنها - وكان حضورها قوياً فى حياته ، فكان أحوج ما يكون إلى مَنْ تملأ شيئاً من الفراغ الذى خلفته السيدة خديجة، وتحمل معه هموم المهام البيتية وغيرها ، وإذا كان ذلك مدعاة لزواجه مرة أخرى لكنه لا يشير إلى ضرورة أن يكون الزواج من السيدة سودة ، ولهذا . . . فإن موافقته على اقتراح خولة بنت حكيم بالزواج من سودة تأخذ فى الاعتبار ظروفها التى تعيشها نفسياً ومادياً واجتماعياً ، وهذه الظروف تؤكد أنه - عليه الصلاة والسلام - اختارها من أجلها هى وليس من أجله هو فى المقام الأول حيث وقع زواجه منها رحمة منه بظروفها القاسية ، ومن ناحية أخرى كان اقترانه بها خطوة موفقة فى سبيل الدعوة ، فقد نجم عنه دخول الكثير من قوم سودة الإسلام .

وقد أدركت السيدة سودة ذلك ، أنه ما تزوجها لشهوة ، فضلاً عن أنها - لكبر سنها - لا تريد ما تريد النساء ، وقد صارحت الرسول ﷺ بذلك - لمّا كبرت - ووهبت ليلتها للسيدة عائشة راضية ببقائها إلى جواره - أُما من أمهات المؤمنين .

فى مقدمة مواد دستور المعاملة بين النبى وأزواجه تتألق قيمة العدل ، والعدل رحمة ، إنه يلتزم بالعدل على حساب رغباته الخاصة ومشاعر قلبه ، التى قد تكون أكثر ميلاً لإحداهن عن الأخريات . .

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :

« كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه (أى أجرى قرعة بينهن) ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، وكان يقسم لكل امرأة يومها وليلتها ، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبى ﷺ تبتغى بذلك رضا رسول الله ﷺ » [(١)]

مصدر هذا الاقتراح هو سودة دون طلب أو إكراه ، ويثبت هذا المعنى كلمات السيدة سودة ، التى تمتلىء قبولاً ورضا ، قالت :

« أمسكنى ، ووالله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجاً لك » .

وكان لها ما أرادت .

* * *

---

(١) أخرجه البخارى .

● مع السيدة عائشة – رضى الله عنها – :

ذات يوم قال عمرو بن العاص للنبى ﷺ : « أى الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال : عائشة . قال: فمن الرجال ؟. قال : أبوها[1] .

مثل تلك الشهادة الواضحة والاعتراف الصحيح من النبى – الرحمة المهداة – فى حق السيدة عائشة تعنى أنها نعمت بظلال وارفة من رحمة المصطفى – عليه الصلاة والسلام – لم يتيسر لغيرها أوفر منها ، ويضاعف من تلك المشاعر التلقائية منزلة أبيها الصديق أبو بكر عند النبى ﷺ ، وفارق السن بين النبى وبين عائشة فبدأ يحبها حب الأب لابنته ، وحين صارت زوجة له اجتمع حب الزوج إلى حب الأب ، فهل يكون سلوكه معها غير فيض سخى من الرحمة ، وما هو الفاصل بين الحب والرحمة ؟! .

لننظر إلى قول النبى ﷺ لابنته فاطمة الزهراء : أى بنية : ألست تحبين ما أحب ؟ فقالت : بلى !

قال : فأحبى هذه (يقصد عائشة) .

ومن صور رحمته – عليه الصلاة والسلام – بالسيدة عائشة ، أن أبا بكر – رضى الله عنه – استأذن ليدخل بيت النبى ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً ، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال : ألا أراك ترفعين صوتك على الرسول ﷺ .

---

(١) أخرجه البخارى .

فجعل النبى ﷺ يحجزه . وخرج أبو بكر مغضباً . فقال النبى ﷺ حين خرج أبو بكر :

- « رأيتنى أنقذتُكِ من الرجل » ؟ .

فمكث أبو بكر أياماً ، ثم استأذن رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا فقال لهما :

- أدخلانى فى سلمكما كما أدخلتمانى فى حربكما .

فقال النبى ﷺ :

- « قد فعلنا . . . قد فعلنا » .

وتأمل رد فعل النبى الرحيم فى محنة حادثة الإفك ، التى وقعت سنة ست من الهجرة ، عقب غزوة بنى المصطلق ، التى خرجت فيها عائشة مع النبى ﷺ ، فبعد أن فرغ النبى من غزوته ، اتجه إلى المدينة وأمر الجيش ليلاً بالرحيل ، وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبى لبعض حاجتها ، والهودج التى كانت تجلس فيه كان موضوعاً أمام الخيمة فى انتظارها .

وكان لعائشة عقد نسل من عنقها وهى فى بعض حاجتها ، فلما عادت إلى الهودج تحسست العقد ، فلم تجده فرجعت تبحث عنه ، ثم عادت إلى المعسكر لتستقل هودجها فلم تجده ، لأن القوم رفعوا الهودج على البعير ، وساروا به وهم يظنون أن السيدة عائشة موجودة بداخل الهودج ؛ لأنها كانت خفيفة نحيفة فلم يشعروا بأنها غير موجودة بالهودج.

وتعاقبت الأحداث حتى وجدت صفوان السليمى ، وكان قد تخلف عن المعسكر لبعض حاجاته فركبت بعيره ، وانطلق صفوان بالبعير سريعاً ليلحق بالجيش فلم يدركه ، ودخل صفوان المدينة فى وضح النهار بين أعين الناس وعائشة على ظهر بعيره .

وتهامس الناس بما رأوه ولم يعرفوا سببه ، وكاد الحديث يؤدى إلى فتنة فى المدينة .

وبلغت هذه الأخبار محمداً ﷺ ، فاضطرب لها لا يدرى أيصدق أم يكذب - وبدأت فضول رحمته بعائشة برغم ما هو فيه من ثورة الشك، إنه لم يخبرها بما يقال فى ظهرها ، ومرضت عائشة بعد ذلك . . . وكتم النبى ﷺ ضيقه وإن ظهر من جفائه فى تعامله مع عائشة .

ولم تعرف عائشة بالخبر إلا من امرأة من المهاجرين ، أما النبي ﷺ فطرح الأمر على بعض خلصائه ، ثم دار بين النبى وعائشة حوار هو أرق وأرحم ما يمكن أن يكون من رجل يتهامس الناس عن زوجته فى أقدس ما فى الحياة الزوجية.

قال لها النبى ﷺ : « يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقى الله إن كنت قد قارفت سوءاً مما يقولون ، فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده » .

فثارت وبكت من هول ما سمعت ، واستحثت أمها وأباها قائلة : ألا تجيبان ؟! فقالا : والله ما ندرى بم نجيب ؟! .

ثم تحدثت إلى النبى ﷺ وختمت بهذه الكلمات :

أنا أقول كما قال أبو يوسف : « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

وفى نفس الجلسة نزل الوحى بتبرئتها فقال لها النبى ﷺ :

أبشرى يا عائشة ! قد أنزل الله براءتك !

تقول آيات البراءة :

﴿ إنَّ الَّذينَ جاءوا بالإفك عُصْبَةٌ منكُمْ لا تَحْسَبوهُ شرّاً لكُمْ بلْ هُوَ خيرٌ لَكُمْ * لكُلِّ امْرِىء منهمْ ما اكْتَسَبَ منَ الإثْم * والَّذى تَوَلَّى كِبْرَهُ منهم لَهُ عَذَابٌ عَظيمٌ * لَوْلا إذْ سَمعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنُونَ والمؤمنات بأنفُسهمْ خيراً وقَالوا هَذَا إفكٌ مُبينٌ * لَوْلا جاءوا عَليه بأرْبَعَة شُهَداءَ فَإذْ لَمْ يَأْتُوا بالشُّهداء فَأولئكَ عندَ الله هُمُ الكَاذبونَ * ولَوْلا فَضْلُ الله علَيكُمْ ورَحْمَتُهُ في الدُّنيَا وَالآخرَةَ لمسَّكُمْ فير مَا أَفَضْتُمْ فيه عَذَابٌ عَظيمٌ * إذْ تَلقَّوْنَهُ بألسنَتكُمْ وَتَقُولنَ بأفوَاهكُمْ مَا لَيْسَ لكُمْ به علْمٌ وتَحْسَبُونَهُ هيِّناً وَهُوَ عندَ الله عَظيمٌ * ولَوْلاَ إذْ سَمعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكونُ لَنَا أنْ نَتكَلَّمَ بهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظيمٌ * يَعظُكُمُ اللهُ أنْ تَعُودوا لمثْله أبداً إنْ كُنتُمْ مُؤمنينَ ﴾[1] .

ويبين حادث الإفك كيف صبر النبى ﷺ ، فلم يصارح زوجته بما سمعه قبل أن يتحراه، وكيف عرض الموضوع في وقت بعيد عن انفعال

(١) النور : ١١ - ١٧ .

اللحظات الأولى لسماع الخبر - وكيف كان أقصى ما فعله هو ظهور الضيق فى نفسه ، فلم يتخذ مظهراً عدوانياً ضد زوجته ، ورأفة بها ورحمة لم يعرض عليها الأمر وهى مريضة .

وبعد أن سأل خلصاءه ومن له بالأمر صلة سألها لتبرىء نفسها أو تستغفر الله دون كلمة لوم واحدة - ترى ، هل هناك درجة أعلى من ذلك فى سلم الرحمة البشرية !!

وقد تركت لنا السيدة عائشة عدداً من الأحاديث ، التى تبين رفقه بها وبسائر زوجاته ، وعندما سئلت عما كان النبى يصنع فى أهله قالت : كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة ، فكان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويرفع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

وظل النبى ﷺ على عدله ورحمته ، لا يعطله عن ذلك مرضه الأخير ، ففى هذا المرض شق عليه أن ينتقل بين بيوت زوجاته كل يوم كما كان معتاداً - فمضى يسأل : « أين أنا غداً » ؟ « أين أنا غداً » ؟

يريد بذلك يوم عائشة ، فأذن له أزواجه كلهن أن يكون حيث يحب، فاختار بيت عائشة ، وفيه توفى ودفن فى حجرتها .

ومن الطبيعى أن نجد أمثلة تطبيقية كثيرة لخصال النبى ﷺ فى تصرفات زوجاته، حتى يمكن أن نعتبرها امتداداً له .

وقد جاء فى حلية الأولياء : أن السيدة عائشة باعت داراً لها بمائة

ألف، ثم قسمت الثمن (على الناس) ولم تستبقِ لنفسها شيئاً ، فثار عليها ابن أختها عبد الله بن الزبير .

وكانت السيدة عائشة تسلك مسلكاً كريماً عندما تعطى صدقة لأحد ، حيث كانت تعطر الصدقة بالروائح الطيبة قبل إعطائها ، باعتبار أن هذه الصدقة لوجه الله تعالى ، وما يعطى لوجه الله يجب أن يكون فى أجمل صورة وفى أحسن رائحة، وهو سلوك على درجة عالية من الرقى والرقة ، فما أروعه من قلب رحيم ينبض فى بيت الرحمة المهداة !!

* * *

● **مع بقية أزواجه - رضى الله عنهن - :**

كان زواج النبى ﷺ من السيدة حفصة - رضى الله عنها - وهى ابنة عمر بن الخطاب وزيره الثانى علاجاً شافياً لكرامة عمر ، التى جُرِحَتْ بامتناع كل من أبى بكر وعثمان عن الزواج منها ، بعد أن عرض على كل منهما ذلك ، فكان قرار الزواج فى هذه الملابسات رحمة بعمر وبابنته ، ويؤكد هذا قول عمر - رضى الله عنه - بعد ذلك :

والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك [1].

وكان من دواعى رحمة النبى ﷺ بحفصة أنها ترملّت وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، فقد كانت زوجة للصحابى الجليل خنيس بن حذافة وهو من أصحاب الهجرتيين ، وشهد غزوة بدر .

وتأتى قصة زواج النبى عليه الصلاة والسلام من أم المؤمنين السيدة هند أم سلمة المخزومية - رضى الله عنها - لتكون قصة من قصص الرحمة .

تزوجت أم سلمة من ابن عمها عبد الله بن الأسد ، وهو من السابقين للإسلام، وهاجرت معه بسبب الاضطهاد والتعذيب إلى الحبشة، ثم عادا إلى مكة ثم هاجر عبد الله زوجها إلى المدينة وحده ، حيث منعت قبيلة الزوجة (أم سلمة) ذهابها معه.

---

(١) رواه مسلم .

ثم توفى أبو سلمة وهو فى حكم الشهداء بأثر جرح عميق من يوم أُحد ، وظل النبى ﷺ إلى جوار « أبى سلمة » حتى موته ، وكبر عليه تسع تكبيرات لبالغ حزنه عليه .

وأصبحت أم سلمة أرملة تحمل وحدها عبء أطفالها اليتامى ، وعبء سنها الكبيرة ، التى نالت من جمالها ، فكيف تكون المواساة والرحمة بحالها ؟! لا بد من مواساة بالنفس .

وكان خير مواساة ورحمة أن خطبها النبى ﷺ لنفسه ، برغم أنها ترددت لما تحمله من أعباء لا تريد أن تنقلها إلى بيت النبى ﷺ ، قالت أم سلمة :

« مرحباً برسول الله ﷺ إنى امرأة غيراء (أى شديدة الغيرة) ، وإنى مصيبة (أى ذات عيال) وليس أحد من أوليائى شاهداً [1] .

فبعث إليها الرسول ﷺ قائلاً :

« أما قولك : إنك مصيبة فإن الله يكفيك صبيانك ، أما قولك : أنك غَيْرَى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك ، وأما الأولياء فليس منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضى بى » .

- وكان الدافع الأول لزواجه - عليه الصلاة والسلام - من أم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث رحمته بـ « عزيز قوم ذل » .

إن جُوَيْرِيَّة هى بنت الحارث بن أبى ضِرَار ، شيخ بنى المصطلق ،

---

(١) « مسند » أحمد .

وعندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المُصْطَلِق ، وتم أسر جويرية فيمن أسروا ، أتت جويرية إلى النبى تعرض عليه هوان شأنها فى وضعها الجديد وتطلب منه مساعدتها ، فعرض عليها الزواج رحمة بما هى فيه ومراعاة لما كانت عليه ، وترتبت على هذا القرار الحكيم آثار طيبة أخرى على الجانبين ، حيث كسب الإسلام أهل مائة بيت من بيوت بنى المصطلق ، وفى الوقت نفسه أفلت أسرى قومها من ذل الأسر تحية من المسلمين لهؤلاء الذين أصبحوا أصهار النبى ﷺ .

- أما السيدة صفية بنت حُيَىّ اليهودية الإسرائيلية ، فترجع أصولها إلى رسول الله هارون ، وكانت قد تزوجت مرتين ، وفقدت أباها وزوجها وأخاها فى الميدان فى غزوة خيبر ؛ وكان يمكن أن تكون أمة من إماء النبى - بعد أخذها ضمن السبايا - لكنه رحمة بها وبقلبها الكسير حيث كانت السيدة صفية زوجة ملك وابنة ملك تزوجها لتكون لها عزة بعد ذلة .

ومن رحمته - عليه الصلاة والسلام - بأزواجه إنصافه لهن ورد غيبتهن ، وتحكى السيدة عائشة صورة لذلك . . . تقول :

ما رأيت صانعة طعام مثل صفية ، صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً وهى فى بيتى ، فأخذتنى قشعريرة فارتعدت من شدة الغيرة ؛ فكسرت الإناء ثم ندمت ، فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ! قال : «إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » [١] .

---

(١) رواه أبو داود والنسائى .

وروى الترمذى أن عائشة قالت تعيب صفية لغيرتها منها قالت : يا رسول الله حسبك من صفية قصرها .

فقال لها :

لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .

وفى ذلك تهويل فى قبح كلمة عائشة .

وذات يوم دخل النبى ﷺ على السيدة صفية فوجدها تبكى ، وأخبرته أن عائشة وحفصة قالتا لها : نحن أكرم على النبى منك ونحن أزواج النبى وبنات عمه .

فقال لها : ألا قلت فكيف تكونان خيراً منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى .

وانطلاقاً من بواعث الرحمة للظروف الخاصة الشائكة كان زواج النبى ﷺ من السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان الأموية - رضى الله عنها- . فقد اعتنقت الإسلام هى وزوجها عبد الله وكابدا مشقة الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وأصيبت فى المهجر بكارثتين هما : ارتداد زوجها عن الإسلام ثم وفاته ، وأصبحت تعانى مشقة الترمل والاغتراب ولا تستطيع العودة إلى أبيها أبى سفيان قائد معسكر الشرك فى ذلك الوقت. فأرسل عمرو بن أمية إلى نجاشى الحبشة ليخطبها له . . وفى الوقت الملائم عاد المهاجرون المسلمون إلى المدينة ومعهم أم حبيبة محملة بهدايا النجاشى .

ومن رحمته بأزواجه أنه لم يكن يستنكف أن يساعدهن فى بعض شئون المنزل، كما كان يحاول أن يقضى حوائجه بنفسه أو مشاركة معهن.

حقاً . . لقد كان النبى ﷺ نبعاً غنياً من الرحمة فى حالى الرضا والغضب وللخاصة والعامة ، ولمن عاصروه ومن يجىء بعده حيث نغترف من سنته العطرة.

* * *

● مع بناته وأحفاده - عليه الصلاة والسلام - :

قبل البعثة المحمدية بسنوات أصبح محمد أباً لأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة من السيدة خديجة - رضى الله عنها - ، وكانت النظرة العامة إلى البنت فى البيئة العربية الجاهلية نظرة ضيق ورفض يصل إلى حد وأد البنات للتخلص منهن لأسباب شتى إلى حد أن شاعت فيهن المقولة المأثورة « دفن البنات من المكرمات » ، ولا بد أن هذه النظرة انعكست على اهتمام الأب ببناته فهن ينلن قليلاً من العناية وكثيراً من الضجر فى المعاملة ، وعندما تصل البنت إلى طور الأمومة تنقلب النظرة إلى الإعزاز والإكبار .

لكن محمداً . . . ذلك الأب الذى يتهيأ بأمر الله ليكون نبياً رسولاً كان على غير ما درج عليه الآباء فى الجاهلية العربية إذ امتاز بالرحمة فى استقبال بناته بالحفاوة بهن ومنحهن أروع ما يعطيه الأب لأبنائه أو بناته من حنان وعناية .

وإذا كان محمد قد آلمه أن يكون بلا ولد - بعد أن فقد أبناءه الثلاثة قاسماً وعبد الله وإبراهيم وهم فى سن الرضاعة والطفولة ، فإن هذا لم يؤثر تأثيراً مضاداً على حدبه ببناته وإن مشاعر الأبوة - بالفطرة السليمة - أكثرها رحمة ، ولهذا وصى الله الإنسان بوالديه ولم يوصِ الوالد بأبنائه باعتبار أن رفق الوالد بأبنائه أمر فطرى وحتمى ولا يحتاج إلى تنبيه وتذكير يقول تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بوالدَيْه حَمَلَتهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أنِ اشْكُرْ لى وَلِوَالِدَيْكَ إلىّ المَصِيرُ ﴾ (١) .

ولأن النبى ﷺ كان المثل الأعلى فى الأخلاق قبل البعثة وبعدها إلى آخر الزمان ، فقد كان أكثر الناس رحمة ورفقاً ببناته فى طفولتهن وفى شبابهن .

- ولم يكن هذا شأنه مع بناته فقط فقد دعا إلى الرفق بالإناث والانتصاف لهن ؛ وفى ذلك سجلت الأحاديث النبوية الكثير .

فعن عائشة - رضى الله عنها - أن فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الغضب :

« إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع به خسيسته وأنا كارهة . فطيبت أم المؤمنين خاطرها واستبقتها حتى جاء النبى ﷺ وسمع شكوى الفتاة، فأرسل إلى أبيها حتى إذا حضر جعل أمر الفتاة إليها ، فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة : « قد أجزت ما صنع أبى ، ولكن أردت أن أعلم : هل للنساء من الأمر شىء» .

لقد منحت الشريعة الإسلامية المرأة حقوقها وكرامتها بعد ما لاقت على طول الزمان ، كما قدم النبى ﷺ القدوة والمثل فى تغيير المفهوم الجاهلى ، الذى ينطوى على ظلم المرأة وإهدار إنسانيتها وحريتها .

---

(١) لقمان : ١٤ .

يقول عمر بن الخطاب :

« والله إنَّا كنا فى الجاهلية ما نَعُد للنساء أمراً ، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا فى أمر أئتمره إذ قالت لى امرأتى :

لو صنعت كذا وكذا ؟

فقلت لها : وما لك أنتِ ولما ها هنا ؟ وما تكلفك فى أمر أُريده ؟ فقالت لى: عجباً يا ابن الخَطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ؟! وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟

فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على « حفصة » فقلت لها : « يا بنية ، إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ » .

فأجابت : إنّا والله لنراجعه !

ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت لى : عجباً لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟!

فأخذتنى أخذاً كسرتْنى به عن بعض ما كنت أجد [1] .

نعود إلى المثل الأعلى والقدوة السامية - النبى الرحيم محمد بن عبدالله - وكيف كان جانب الرحمة فى حياته معهن ، وقد تزوجن فى

(١) « السمط الثمين » للمحب الطبرى .

حياته ، كما فقد ثلاثاً منهن فى حياته ولم يتبق له سوى فاطمة صغراهن والتى لحقت بالنبى ﷺ بعد وفاته بنحو ستة أشهر فقط .

ومنذ أنجبت السيدة خديجة أولى بناتها (زينب) وأدركت سن الفطام، تفرغت - رضى الله عنها - لمهام الحضانة والتربية ، وحمل محمد عنها كل أعباء تجارتها وجاءت آخر الشقيقات الأربع فاطمة لتملأ قلب السيدة خديجة بالبهجة لأنها رأت فيها شبهاً كبيراً فى كثير من صفاتها بمحمد ﷺ .

وعاشت الشقيقات الأربع حياة سعيدة فى كنف أمهن وحب أبيهن .

ويحيا محمد وزوجه التجربة الأولى لتزويج بناته ؛ فقد تقدم للزواج من زينب (الكبرى) ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ؛ ومن خلال صلات القربى كان محمد يعلم أن ابنته زينت لن ترفض ابن خالتها ، لأنها كانت تستمع إلى أحاديثه فى شغف كما أنه كان شابا ثريًا على وسامة وخلق طيب - وبرغم هذا الذى يعرفه آثر أن يبدأ بأخذ رأيها صراحة فى الزواج من أبى العاص ، وفى الوقت نفسه أراد ألا يسبب لها حرجاً فى طرح الأمر عليها عن طريقه ، حتى لا يؤثر ذلك فى إبداء رأيها . . . فكلّف السيدة خديجة أن تستطلع رأيها - ثم اقترب من حجرتها دون أن يدخلها ، وأسمعها صوته مخبراً إياها أن أبا العاص بن الربيع ذكر اسمها ؛ ومنعها حياؤها أن تجهر بالقبول ، ووصلت إليه دعوات الأم الطيبة ، فعاد النبى إلى أبى العاص وهنَّأه بالموافقة .

وتدور عجلة الحياة وتكشف عن أحداثها الكبرى ، ويشرق نور

الإسلام على الكون فينزل الوحى على النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - وتسلم زينب - فيمن أسلموا - ويظل زوجها أبو العاص على شركه ، خشية أن تقول قريش أنه اتبع هَوى زوجته .

وينعم الله على المسلمين بانتصارهم ، الذى شاركت الملائكة فى صنعه بأمر الله فى غزوة بدر الكبرى ، ويأسر المسلمون أبا العاص بن الربيع ضمن أسراهم، فينحيه النبى عن الأسرى ويفرّق الباقين بين أصحابه وهو يقول : « استوصوا بالأسارى خيراً » .

وجاء من مكة عمرو بن الربيع أخو أبى العاص من أجل فداء أخيه فالتقى بالنبى ﷺ ونقل إليه رسالة من ابنته زينب فقال له :

- بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها ، أخى ، أبى العاص بن الربيع ، وأخرج قلادة لها ، كانت أمها السيدة خديجة قد أهدتها إلى ابنتها زينت يوم عُرسها - فلما رآها النبى رَقّ لها رقة شديدة ثم قال لأصحابه ، يحركه دافع الرحمة بابنته التى تحاول أن تسترد زوجها الحبيب قال :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها ، فافعلوا » .

فوافقوا جميعاً قائلين : « نعم يا رسول الله » .

وتتابع الأحداث ويفرّق الإسلام بين زينب وزوجها ، فترحل إلى المدينة ويصيبها اثنان من المشركين بالأذى فى الطريق .

ثم يخرج أبو العاص إلى الشام فى مال وتجارة لقريش ، وفى الطريق تستولى سرية من المسلمين على ما معه ويفر أبو العاص إلى

زينب فى المدينة ، ويستجير بها ممن يطاردونه فتجيره ، وأجاره النبى ﷺ كذلك على مشهد ومسمع من المصلين فى المسجد ، وزيادة فى رحمته بابنته وإكراماً لها اتخذ النبى ﷺ خطوة أسعدتها .

لقد خاطب النبى جمعاً من صحابته فى المسجد ، وبينهم رجال السرية الذين استولوا على مال أبى العاص بالبارحة . . . وقال لهم :

« إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به » .

فأجابوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه ، وردوا عليه ماله ، جميعاً فانطلق أبو العاص به آمناً إلى مكة ، وبعد أن رده إلى أصحابه أعلن إسلامه وعاد إلى المدينة ورد عليه النبى زينب ، والتأم شمل الأسرة السعيدة ؛ وزينب وأبو العاص نَعِمَا معاً بالحب وبولدهما علىّ وابنتهما أُمامة .

وفى بداية السنة الثامنة للهجرة ماتت زينب - رضى الله عنها - بأثر الأذى الذى لحق بها عند رحيلها من مكة إلى المدينة ، وحزن على فراقها النبى ﷺ وزوجها أشد الحزن .

ووجد النبى الرحيم بعض العزاء فى أن يفيض برحمته وبعنايته وحبه على أبناء زينب . فكان يطيل مداعبة حفيدته « أمامة » ويحملها على عاتقه ويصلى بها ، وإذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها .

وعندما أُهديت قلادة للرسول ﷺ قال :

« لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىّ » .

فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة .

لكن رسول الله دعا « أمامة » بنت زينب فعلّقها فى عنقها .

وخاضت كل من رُقَيَّة وأم كلثوم تجربة الطلاق من عُتْبة وعُتَيْبة ابنى أبى لهب عدو الله . . وما سبق الطلاق من معاناة بسبب قسوة وجفاء «أم جميل » زوجة أبى لهب ، فكانتا بذلك تحتاجان إلى ما يطيب خاطرهما ويسرِّى عنهما همومهما الشخصية ؛ وقد حمل النبى ﷺ على عاتقه هذه المهمة إلى جوار جهود خديجة وكان زواجهما بعد ذلك إغلاقاً لصفحة الزواج الأولى وما تبعها من غيوم وأسى.

وتتعاقب الأحداث وتموت رقية - بعد زواجها من عثمان بن عفان - مع اللحظات الأخيرة من انتصار المسلمين في غزوة بدر ، وكان النبى ﷺ قد ترك عثمان إلى جوار رقية يُمرّضها ويرعاها ولم يشترك فى غزوة بدر .

وجاء الأب المنتصر ليغزو قلبه حزن ثقيل على ابنته « رقية » التى فارقت الحياة وإلى جوارها فاطمة تبكى . . . فانثنى فى رفق نحو ابنته «فاطمة » التى أكبت على مضجع أختها تبكى ، فجعل ﷺ يمسح دموعها بطرف ثوبه (١) .

---

(١) انظر : « الإصابة » (ج ٨) .

ورحمة بابنته « رقية » فى موتها يسمح للنساء أن يبكين ابنته دون صراخ فعندما أراد عمر أن يزجرهن قال له :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » .

وصلى النبى على ابنته رقية وشيعت المدينة جثمانها الطاهر . . . ، وضرب أبوها الرسول لصهره « عثمان » بسهمه وآجره مما أفاء الله على المسلمين فى «بدر» إذ كان إنما تخلف عن شهودها لمرض رقية الراحلة(١) .

وتعيش أم كلثوم حتى تشهد وفاة أمها السيدة خديجة ، ويعود النبى ﷺ بعد أن واراها التراب بحزنه ويديه ليحتضن ابنتيه أم كلثوم وفاطمة وقد أصبح لهما أُما وأباً .

ثم تعيشان وحدهما فترة من الوقت ، بعد هجرة أبيهما النبى ﷺ إلى يثرب وهما تذرفان مرارة الغربة وفراق الأم ورحيل الأب ورحمته بهما فيكلهما النبى ﷺ إلى رحمة الله . . . ثم تهاجران إلى المدينة .

وتتزوج أم كلثوم من عثمان بن عفان ، وتدرك فتح مكة هى وأختها فاطمة ، وتموت أم كلثوم فى العام التاسع للهجرة ، وتُدفن إلى جوار أختها فى يثرب ، ويزداد حزن النبى سهماً نافذاً ويزداد حزن فاطمة سهماً نافذاً ، وتحتاج إلى دفقات أوفر من حنان الأب ليعوضها عن الكثير الذى فقدته بفراق أختيها وأمها .

---

(١) « الطبقات الكبرى » لابن سعد .

أما فاطمة ، وهى رابعة البنات ، وعادة تكون رابعة البنات ضيفاً ثقيلاً على الوالدين باعتبار ما استقر من الطبائع والعادات الموروثة ؛ فكان مولدها قبل البعثة المحمدية بخمس سنوات وأسهم البنات فى بلاد العرب - وفى غيرها - لا تزال فى الحضيض - ويقترن مولدها بحادث اشتجار قريش على وضع الحجر الأسود وتدخل محمد لإنهائه فقابل الأبوان مولدها بالترحاب وصنعا لها ما يُصنع للمولود الذكر فى ذلك الوقت احتفاءاً بها .

وشبت فاطمة فى مناخ من الحب من والديها وأخواتها وفى مناخ من المودة الفياضة من أبيها خاصة ، حتى عرَّفها التاريخ بأحب البنات لدى النبى ﷺ - وهو موقف إنسانى متصل ، مضاد تماماً لما يحدث فى البيوتات الأخرى فى الأحوال المناظرة - وقدّر الله لفاطمة أن تواكب مراحل الدعوة جميعاً حتى وفاة النبى ﷺ، وما السنوات الخمس التى سبقت البعثة إلا لكى تصل إلى سن تتمكن فيه من الإحساس بما حولها .

ومن حنانه عليها واقترابها من قلبه ، بل وسكنها بين طياته كان اسمها على لسانه حاضراً فى أوقات كثيرة ، ويردده عندما يلقى بعض الأمثال والتوجيهات، ومن ذلك أن امرأة من قريش سرقت بعد أن أسلمت ولجأوا إلى أسامة بن زيد ليشفع فيها - وكان الرسول يقبل شفاعته - فلما حدثه أسامة فى أمر تلك المرأة قال :

« لا تكلمنى يا أسامة ، فإن الحدود إذا انتهت إلىَّ ؛ فليس لها من مَتْرك ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها » [1] .

---

(١) « الإصابة » (ج ٨) .

كما قال النبى ﷺ : « خير نساء العالمين أربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة » .

وربما كان النبى ﷺ قاصداً إظهار المزيد من الرفق والمحبة بابنته فاطمة رحمة بما قد يساورها من وهم الإحساس بأنها غير مرغوب فيها ، قياساً بما هو سائد فى عُرْف الجماعة .

وبالطبع : فإن هذه المحبة الزائدة لم تكن أبداً على حساب حبه لبناته الثلاث، لكنها بعد وفاة أخواتها حظيت بكل الحب ، واجتمع لها أيضاً حبه لولديها الحسنين حفيديه الوحيدين .

وكم رقّ لها قلب النبى ﷺ ودقّ خوفاً وإشفاقاً وحناناً وأسى لما حل بها عند هجرتها - بصحبة أختها أم كلثوم ورسول من أبيها - إلى يثرب، وتسبب أحد المشركين وهو « الحويرث » فى أن تسقط من على دابتها وتصاب بجرح فى جسدها ونفسها وتكمل هى وأختها الطريق الشاق مشياً على الأقدام ، ولا ينسى الرسول جريمة « الحويرث » فيبيح قتله يوم فتح مكة فيقتله على بن أبى طالب .

وعندما أقبل « على » على الزواج من فاطمة ، وصف النبى ﷺ علياً لابنته يذكرها بصفاته التى يعرفها الناس وتعرفها هى ؛ يطمئنها على حياتها الجديدة وهى أنه أقوى الناس إيماناً وأكثرهم علماً ، وأفضلهم أخلاقاً وأعلاهم نفساً (١) .

---

(١) « طبقات » ابن سعد (ج ٨) .

وفضلاً عن ذلك : فإن النبى ﷺ هو الذى قام بالإنفاق على على وتربيته وكفالته ، تخفيفاً عن عمه أبى طالب الذى كان قليل المال كثير العيال ، وهذا من شأنه أن يضاعف من حسن المعاملة ، وإذا انتقلنا إلى البُعد الشخصى ، فإن عليًا كان من المقربين إلى قلب النبى ﷺ ومن المستأثرين بحبه منذ كان طفلاً ، ولسنا فى حاجة إلى تأكيد ما كانت عليه مشاعر على تجاه ابن عمه ، الحبيب لكل الناس فى عصره وفى كل العصور إذا فكرت العقول وتفتحت القلوب ، وفى هذا المناخ كم يكون الاطمئنان على سعادة فاطمة فى كنف علىّ .

وتنعم العائلة المحمدية برحيق الفرحة بمولد « الحسن » ، وتصدّق جدّه على فقراء المدينة بزنة شعره فضة ، ثم كانت فرحة أخرى عندما ولدت فاطمة الزهراء حفيد النبى ﷺ الثانى « الحسين » ، فى السنة الرابعة من الهجرة ، ومن فرط حبه لهما كان يدعوهما بابنيه ، وعن أنس بن مالك أنه ﷺ كان يقول لفاطمة - رضى الله عنها - : «ادعى لى ابنىّ » . فإذا ما جاءا إليه شمهما وضمهما .

وقال أسامة بن زيد :

طرقت باب النبى ﷺ فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شىء لا أدري ما هو ، فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ فكشفه ، فإذا الحسن والحسين ، وقال :

« هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إنى أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما » .

وقد رأى البراء بن عازب النبى ﷺ واضعاً الحسن بن علىّ على عاتقه وهو يقول : « اللهم إنى أحبه فأحبه » (١) .

ولنا أن نترجم معانى هذه الصور التى تفيض حبا ورحمة بحفيديه .

وقال أبو بكْرَة : كان النبى ﷺ يحدثنا يوماً والحسن بن على فى حِجْره فيُقْبِل على أصحابه فيحدثهم ، ثم يقبل على الحسن فيقبّله ثم قال :

« إن ابنى هذا لسيدٌ إن يَعِشْ يُصْلح بين طائفتين من المسلمين » (٢) .

وقد تحققت هذه النبوءة . .

وقال أبو بكرة أيضاً : إن رسول الله ﷺ كان يصلى ، فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه ، فيرفع رسول الله ﷺ رفعاً رقيقاً لِئَلا يُصْرع ، فعل ذلك غير مرة ، فلما قضى صلاته قالوا : يا رسول الله رأيناك صنعت بالحسن شيئاً ما رأيناك صنعته .

قال : إنه « ريحانتى من الدنيا وإن ابنى هذا سيدٌ وعسى الله -تبارك وتعالى - أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » (٣) .

---

(١) أخرجه الترمذى .　　(٢ ، ٣) « مسند » أحمد (ج ٥) .

وكان رسول الله ﷺ يخطب الناس في المسجد ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثُران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :

« صدق اللهُ إنما أموالُكم وأولادكم فتنة ؛ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثُران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » (١) .

وقال أسامة بن زيد : كان نبى الله ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه، ويقعد الحسن بن على على فخذه الأخرى ثم يضمنا ثم يقول : « اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما » (٢) .

وأسامة بن زيد بن حارثة توفى عام (٥٤) هجرية ، وهو صحابى من موالى النبى وقد لقبّه حِب رسول الله . وعقد له الرسول إمارة الجيش لغزو الروم .

وقال الرسول ﷺ :

« حُسين منى وأنا من حُسين . أحبَّ اللهُ من أحبَّ حُسيناً ، حسينٌ سِبْطٌ من الأسباط » .

السبط ولد البنت وهو مشتق من السبَط وهو الشجرة (٣) .

وقال البراء : كان رسول الله ﷺ يصلى فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره ، فكان إذا رفع رأسه مال بيده فأمسكه ، أو أمسكهما ، قال : « نعم المطية مطيتكما » (٤) .

---

(١) « مسند » أحمد (ج ٥) .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه الترمذى .

(٤) رواه الطبرانى .

وحتى فى لحظات مرضه الأخير - عليه السلام - كان رحيماً بمن يحيط به ، لا يريد أن يثقل عليهم بل يُسرِّى عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وكان جزع ابنته وأحب البنات إليه فاطمة الزهراء فى مرض الوفاة يفوق ما عداه ، فيفضى إليها بشىء يجعلها أكثر صبراً فى احتمال الحزن العظيم ، الذى أدرك مداه .

وتقول عائشة أم المؤمنين : ما رأيت أحداً أشبه سَمْتاً ودَلاً وهَدْياً برسول الله فى قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله .

ثم تقول : وكانت إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام إليها فقبّلها وأجلسها فى مجلسه ، وكان النبى ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبّلتْه وأجلسته فى مجلسها ، فلما مرض النبى ﷺ دخلت فأكبّت عليه فقبلته ، ثم رفعت رأسها فبكت، ثم أكبّت عليه ، ثم رفعت رأسها فضحكت ، إنْ كنت لأظن أن هذه من أعقل نسائنا فإذا هى من النساء ، فلما تُوفى النبى ﷺ قلت لها : أرأيت حين أكببت على النبى ﷺ فرفعت رأسَك فبكيت ثم أكببتِ عليه فرفعت رأسك فضحكتِ ، ما حملك على ذلك ؟ قالت : إنى إذا لبَذِره (أى لا أكتم السر) أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا فبكيْت ، ثم أخبرنى أنى أسرع أهله لحوقاً به ، فذاك حين ضحكتْ (١) .

---

(١) أخرجه الترمذى .

وقد تحقق هذا الإخبار ، فتوفيت السيدة فاطمة الزهراء بعد وفاة النبى بنحو ستة أشهر فقط .

وكانت وفاة النبى الرحيم فاجعة ، لا أكبر منها على نفوس المسلمين عامة ، وعلى نفس فاطمة خاصة . . فتحاملت على قدميها إلى قبر النبى ، حتى إذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فقربتها من عينيها اللتين قرّحهما البكاء . ومضت تشم التراب وهى تبكى شعراً :

ماذا على من شمَّ تربة أحمــد ألا يشم مدى الزمان غواليـا ؟

صُبَّت علىّ مصائــب لو أنهــا صبّت على الأيام عُدنَ لياليا ؟

ولما دفن النبى قالت فاطمة لأنس بن مالك خادم النبى ﷺ :

يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثو على رسول الله ﷺ التراب ؟ (١)

* * *

(١) أخرجه أحمد .

مع أهل البيت

كانت نشأة النبى ﷺ منذ طفولته تنشر فى قلبه أنوار الرحمة ، وتجعل مشاعره تجاه المحيطين به غنية فى عطائها ، مشغوفة بما يبثه الآخرون من مشاعر تجاهه لتعويض هذا الذى لا يعوض بفقد حنان الأم ، ومظلة الأب فى السنوات الأولى من الحياة .

ويزداد سخاء المشاعر أخذاً وعطاء ، عندما تكون شجرة الأهل التى تحتضن محمداً ويحتضنها هو الآخر طيبة كريمة .

واعتاد محمد فى صغره أن يجد من حوله يهتمون بأمره ، بتكليف تلقائى من أنفسهم ، فدرج على الانشغال بأمور أهله ابتغاء مساعدتهم وتقديم العون لهم إذا امتلك القدرة على ذلك ومشاركتهم فى أفراحهم وأتراحهم . ففضل أهل بيته عليه فضل التربة الصالحة على البذرة الطيبة ، فهى تحتضنها وتقيها شر العاديات وتمنحها الغذاء والشراب ، حتى تنبت وتقدم شيئاً مفيداً للحياة .

وظل حب النبى ﷺ لأهل البيت حيا فى قلبه يترسخ بمضى الأيام .

وكان لعدد من أهل بيته أدوار البطولة الأولى الفذّة فى القبض على جمر الدعوة الإسلامية فى بدايتها بما فيها من تعذيب وتغريب وتجويع وامتهان - حتى قال النبى ﷺ :

« لكل شىء أساس، وأساس الإسلام حب أصحابى وأهل بيتى»[1].

---

(١) رواه البخارى .

ومضى النبى ﷺ يمسح برحمته وبكلماته البلسم دموع أهله ، متألماً من أجلهم جاهداً فى تخفيف أحزانهم . . . فحين توفى لصفيّة بنت عمه عبد المطلب ابن لها، وبكت عليه طويلاً قال لها النبى الكريم الرحيم :

« تبكين يا عمة ، من توفى له ولد فى الإسلام كان له بيت فى الجنة يسكنه» .

ولا يقتصر الأمر على رحمته - عليه الصلاة والسلام - بأهل البيت فى حياته وحياتهم وإنما أراد أن تتصل هذه الرحمة ، وتمتد ليشارك فيها بالدعاء لهم والصلاة عليهم وعلى كل المسلمين إلى يوم الدين بعد مماته ومماتهم .

وروى عن كعب بن شجرة أنه قال : لما نزلت الآية الكريمة :

﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلّونَ على النَّبى يا أيها الَّذينَ آمنُوا صلّوا عَليهِ وَسَلِّموا تَسْليماً ﴾ .

قلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟

فقال : « قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد » .

وفى هذا المعنى قال الإمام الشافعى شعراً :

يَا أهلَ بَيْتَ رَسُـول الله حُبُّكُـمُ فَـرْضٌ منَ الله فى القُـرآن أنْزَلَـهُ

كَفَـاكُم منْ عَظِيمِ القَـدْر أنَّكُـمْ مَنْ لَمْ يُصَـلِّ عَلَيْكُم لا صَـلاةَ لَهُ

- والنبى ﷺ يهتبل المناسبات ليعبر عن مكنون فؤاده من الرحمة ،

وإحساسه العميق باقتراب هؤلاء الأهل إليه بأكثر من قرابتهم الرسمية . فيعتبر - على سبيل المثال - زوجة عمه فاطمة أم على بن أبى طالب أمّا له فيدعو لها حين ماتت قائلاً :

« اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى » .

- وهو عليه - الصلاة والسلام - يسعى إلى تقديم الحلول العملية ، لحل مشكلات الأهل، ويسند إلى نفسه جانباً من عبء حل هذه المشكلات، وهو لا ينتظر حتى تعرض عليه المشكلة ، وإنما يتلمسها فيبادر إلى طرحها للمناقشة ويشارك فى اقتراح الحل ويسارع إلى تحمل أعبائه.

ونطالع هذه الصورة لرحمته بأهله وهو فى مرحلة ما قبل البعثة ، جاء فى السيرة لابن هشام :

كان من نعمة الله على علىٍّ بن أبى طالب ، ومما صنع الله له ، وأراده به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ، وكان من أيسر بنى هاشم : « يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله . آخذ من بنيه رجلاً ، وتأخذ أنت رجلاً ، فنكفُّهما عنه».

فقال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له :

إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلاً ، فاصنعا ما شئتما .

- فأخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه . فلم يزل على مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله - تبارك وتعالى- نبياً . فاتبعه على - رضى الله عنه - وآمن به وصدَّقه ، ولم يزل جعفرٌ عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

- وهو - عليه الصلاة والسلام - سند لأهله عند الحاجة - خاصة هؤلاء الذين ساندوه فى صراعه الطويل ضد الشرك والمشركين ، أو على الأقل لم يكونوا ضده . ومن تلك المواقف هذا التنبيه المحدد ، الذى أعلنه النبى ﷺ فى غزوة بدر الكبرى حيث قال لأصحابه يومئذ:

« إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البَخْتَرى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً » .

وقد نهى النبى ﷺ عن قتل أبى البخترى ، لأنه لم يقدم على إيذاء النبى وهو بمكة وكان ممن نقضوا الصحيفة الظالمة التى كتبتها قريش ضد بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لأنهم ناصروا النبى ﷺ .

ولا شك أن تمييز هذا الرجل عن بقية المشركين هو لون من الوفاء

الواجب لمواقفه ؛ وإن كان البخترى لم يستفد - باختياره - من فرصة النجاة ، التى منحها له النبى ﷺ فقُتِل فى الغزوة مجاملة لزميل له .

أما النهى عن قتل العباس ، فكان موضع أكثر من تحليل وتعليق ؛ فهناك أكثر من تساءل : هل كان هذا النهى لمجرد قرابته من النبى من قبيل رحمته بأهله ؟ أم كان النهى عن قتله دليلاً على أن العباس كان قد أسلم وكتم إسلامه ليكون عيناً على قريش ؟ - أم كان بسبب عدم قيامه بأى موقف مضاد لمسيرة الدعوة الإسلامية ؟

ولتفهم الدوافع التى دعت إلى هذا القرار ، لا بد أن ندرك بداية أن مواقف البعض تجاه النبى ﷺ بعد البعثة من تعذيب أو تأييد إيجابى أو تأييد سلبى هى مواقف من الدعوة نفسها ، وليست مواقف شخصية ضد شخص محمد - عليه الصلاة والسلام - فالنبى - عليه الصلاة والسلام - بعد البعثة أصبح رمزاً للدعوة ؛ لأنه قرآن يمشى على الأرض، والموقف منه هو موقف من الدعوة .

ومن هنا كان خطأ أبى حُذَيْفَة حين قال منفعلاً تعليقاً على قرار النبى ﷺ :

« أنقتل آباءنا وأبناءنا وأخوتنا وعشيرتنا . . ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألجمنه السيف (أى ليقتلنه) » .

وحين بلغ هذا القول النبى ﷺ علّق عليه من منطلق رحمته بأهله ، وهى إحدى مبررات القرار الموضوعية الكثيرة التى تؤكد ضرورته ؛ قال لعمر بن الخطاب :

« يا أبا حفص (وكان أول مرة يناديه بهذه الكنية) أيُضْرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف » ؟ .

فقال عمر :

يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

- وأدرك أبو حذيفة خطأه فقال : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً ، إلا أن تكفرها عنى الشهادة ؛ فقُتل فى غزوة اليمامة شهيداً .

إن رحمة النبى ﷺ بأهله أفاد منها الغير ، وفى موقفه - عليه الصلاة والسلام- من الأسرى تقترن الرحمة بالعدل اقتراناً جميلاً . فحين عاد المسلمون من غزوة بدر الكبرى إلى المدينة بالأسرى من المشركين - وكان بينهم العباس بن عبد المطلب ، وفى تلك الليلة سمع النبى ﷺ أنين عمه العباس وهو فى وثاقه بين الأسرى فأرّقه ذلك ، ومنع عنه النوم ، فقام رجل فأرخى من وثاق العباس فقال النبى ﷺ :

- ما لى لا أسمع أنين العباس ؟ فقال رجل من القوم :

إنى أرخيت من وثاقه شيئاً .

فقال النبى : « فافعل ذلك بالأسرى كلهم » .

ويجىء الصباح ليشهد مشهداً يسوده مزيج من الرحمة والعدل ، بحيث لا تكون الرحمة على حساب العدل ، ويكشف هذا المشهد عن اهتمام النبى ﷺ بأن يرى الناس رحماء بعضهم ببعض ، وها هو يحث

عمه العباس أن يكون رحيماً بابن أخيه عُقَيْل بن أبى طالب ، ونَوْفَل بن الحارث ، وحليفه عتبة بن عمر - وهم أسرى معه - بأن يفتديهم ويفتدى نفسه من الأسر بمال يدفعه فى هذا السبيل فيقول العباس :

« يا رسول الله إنى كنت مسلماً ولكن القوم استكرهونى ».

فقال النبى ﷺ : « الله أعلم بإسلامك ، إن يك ما تذكر حقاً فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك » .

وكان الرسول قد أحذ منه عشرين أوقية من ذهب ، فقال العباس : « يا رسول الله احسبها من فداى » .

ولأن العباس كان قد دفع هذا الذهب فى غير ذلك الباب ، لم يوافقه على اقتراحه تيسيراً عليه وهو عمه الذى يحبه فرد عليه :

« لا ، ذاك شىء أعطاناه الله منك » .

وعندئذ اعتذر العباس بأنه لا يملك مالاً فكشف له النبى سراً لم يكن يعلمه أحدً ، وكان العباس يختص به نفسه . قال الرسول : « فأين المال الذى وضعت بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فللفضل كذا ولعبد الله كذا وكذا » ؟

قال العباس : والذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله .

وقام العباس بدفع الفدية كاملة كما طلب منه النبى ﷺ .

* * *

الباب الثالث

النبى ﷺ رحيماً مع أعدائه



مع الأعداء المشركين

جاء الإسلام ليجعل الناس على طريق الهدى إخواناً وأحباباً ، وراح يطرق قلوب المشركين وعقولهم ، يحمل لهم النجاة فى الدنيا والآخرة . . لكن بعضهم كابروا وبعضاً آخر لم يكتفوا بالعناد والرفض ، وتلذذوا بتعذيب المؤمنين والاعتداء عليهم والسخرية منهم ، فحددوا بذلك لأنفسهم صفة كريهة ، وهى صفة العداء وفرضوا بذلك على النبى ﷺ وأصحابه أن يتعاملوا معهم كأعداء .

ومقاومة لشهوة العدوان التى استبدت بالكافرين وخططهم السافرة والمتكررة للقضاء على النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - وعلى الإسلام . . . كان لا بد للمسلمين من الدفاع عن عقيدتهم وعن أنفسهم وأموالهم ، ورد الحرب التى يديرها المشركون ضدهم ، ذلك لأن الإسلام لم يبدأ بالقتال ولم يأمر به إلا دفاعاً عن النفس ورداً للعدوان . يقول تعالى :

﴿ وَقَاتلوا فى سَبيلِ الله الَّذينَ يُقَاتِلُونَكُم ولا تَعْتَدوا إنَّ اللهَ لا يُحبُ المعْتَدينَ﴾(1) .

وفى الحروب تحدث تجاوزات كثيرة ، وتتجسد المتناقضات وتبرز

---

(1) البقرة : ١٩١ .

أخلاق المتحاربين، التى تتراوح بين بشاعة الانتقام ورقة الرحمة - والخلق الحقيقى للمحارب يظهر عندما تتيسر له فرص الأمر والنهى ، ويكون فى مركز القوة وعدوه فى هوة الضعف والتخاذل ، كأن يكون أسيراً على سبيل المثال .

فماذا كان يفعل النبى ﷺ بأسرى الأعداء وهم فى قبضته ؟ إنه يأمر الصحابة والمشرفين على أحوال الأسرى بهذا الأمر الرحيم : «استوصوا بالأسرى » .

وكان من سداد التصرف حجز هؤلاء الأسرى ، حتى تنتهى الحرب لكى لا يعودوا إلى ميدان القتال مرة أخرى ، وبعد انتهاء الحرب يكون التصرف معهم على أحد وجهين :

الأول : الفداء : بفداء الأسير بمبلغ من المال يدفعه أهله ، حتى يخلى سبيله ، أو يتم مبادلة الأسير بأسير آخر من أسرى المسلمين لدى المشركين ؛ على أن يتم ذلك دون تعذيب الأسير أو إهانته أو الثأر منه ، بل كان النبى ﷺ يحض المسلمين على معاملة الأسرى معاملة كريمة .

والوجه الثانى : المن : وهو أن يصفح عن الأسير فيُطْلق ليعود إلى وطنه دون مقابل ويخضع هذا السلوك لما يقرره القائد على ضوء المصلحة العامة - وقد أفرج النبى ﷺ عن عدد من الأسرى على هذا النحو ، وقد أسفرت هذه الطريقة عن دخول عدد من الأسرى الإسلام ، لما رأوه من سماحته وعدله .

وقد حدث أن ثُمَامَة بن أثَال سيد أهل اليمامة سقط أسيراً فى أيدى المسلمين تجاه نجد وأحضروه إلى النبى ﷺ فى المدينة . فسأله النبى ﷺ :

« ما عندك يا ثمامة » ؟ .

فقال : عندى يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما تشاء .

وفى اليوم التالى أطلق النبى ﷺ سراحه بغير فداء ، وفى طريق عودة ثمامة إلى أهله فكر فى سماحة محمد ورحمته به وكرمه معه ، فرجع إلى النبى ﷺ الذى كان بالمسجد وأعلن إسلامه ونطق بالشهادتين، ثم عاد إلى اليمامة - وكان تاجراً كبيراً من تجار القمح - وكان جانباً كبيراً من تجارته مع مشركى قريش ، فبعد أن دخل الإسلام وضع شرطاً لبيع القمح إلى مشركى قريش وهو أن يحصلوا على موافقة النبى ﷺ على ذلك . وبرغم ما كان من عداء قريش للنبى ﷺ أباح التجارة بين ثمامة وبينهم وهو موقف رحيم كريم .

ومن الصور التى توضح رقة قلب النبى ﷺ أنه كان يمنح الحرية للأسرى الذين لا يملكون شيئاً يفتدون به أنفسهم - وما أرحمه - عليه الصلاة والسلام - إزاء الشاعر الكافر الأسير أبى عزة الجمحى ، الذى اتجه إلى النبى يستعطفه طلباً للنجاة . قائلاً: لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدق بى عليهن يا محمد ، وإنى لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً .

فصفح عنه النبى وأرسله إلى قومه من غير فداء ، لكن أبا عزة لم

يف بوعده الذى قطعه على نفسه ، وبعد عام واحد قاتل المسلمين فى أُحد ونال جزاءه حيث أُسِر وقتل .

ومن رحمة النبى ﷺ بالأسرى كذلك : أن عمر بن الخطاب أراد أن يمثل بالأسير سُهَيْل بن عمر ليؤذيه فى لسانه ، الذى تطاول به على النبى فقال النبى ﷺ :

« لا أمثّل به فيمثّل الله بى وإن كنت نبياً » .

ثم قال : « إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه » .

وقد تحقق هذا القول ، فقد أسلم سهيل وقال لأهل مكة لما أرادوا الارتداد بعد وفاة النبى ﷺ : لا تكونن آخر من أسلم وأول من كفر . فلم يرتدوا .

حتى فى أثناء المعارك كان النبى ﷺ يقول لجنوده :

« انطلقوا باسم الله وبالله ، وعلى بركة رسول الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

وكان حقاً قول الشاعر الصحابى حسّان بن ثابت فى مرثية للرسول:

فَبُورِكتَ يَا قَبْرَ الرَّسولِ وبُورِكَتْ   بلادٌ ثَوى فيها الرَّشيــدُ المسَــدَّدُ
لَقَدْ غَيَّبوا حلماً وعلماً ورَحْمَــةً   عَشيّة علَوهُ الثَّـرَى لا يُوسَــدُ
عَفوٌ عَنِ الزَّلاتِ يَقْبلُ عُذْرَهُــمْ   وَإنْ يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالخَير أجْــوَدُ

وما أروعه من موقف ذلك الذى كان فى غزوة أحد ، حيث أصيب النبى ﷺ بالجراح فى وجهه وجسمه ، ورغم ذلك كله يقول فى قومه - أهل قريش - خيراً فقال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » !!.

إنه لم يستنزل عليهم اللعنات بأثر آلامه وغضبه ، وإنما طلب لهم الغفران ، فكان أكثر صبراً ورحمة من بعض الأنبياء الذين ضاقوا بضلال قومهم وعنادهم - مثل نوح ويونس عليهما السلام .

وتكرر مشهد الرحمة فى طريق عودة النبى ﷺ بعد انتهاء حصار الطائف ، إذ ناشده بعض الصحابة أن يستنزل غضب الله على الأعداء بالدعاء عليهم لكن النبى ﷺ صلى من أجل أعدائه ودعا لهم بالهداية، وقبل الله دعاءه وهداهم فى وقت يسير ودخلوا الإسلام .

وفى غزوة أحد أيضاً ، حيث قُتِل عم النبى حمزة بن عبد المطلب بمكيدة دبرتها هند ثم مثّلت بجثمانه الطاهر - فعندما رأى النبى ﷺ ما حل بعمه من بَقْر بطنه ومضغ كبده وجَدْع أنفه وأذنيه، امتلأ قلبه الرحيم حزناً وغيظاً وقال فيما قال متوعداً :

« لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » .

ولما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه قالوا :

« والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثْلَة لم يمثلها أحد من العرب » .

لكنها لحظات الغضب وثورته التى تغلبها مشاعر الرحمة بعد ذلك -حتى بالأعداء - فبعد أن نزلت الآية الكريمة .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾(1) .

عفا الرسول ﷺ وصبر ونهى المسلمين عن التمثيل بالآخرين - إن هذه الآية حركت طبعاً أصيلاً لدى النبى ﷺ هو طبع الرحمة والتسامح الذى توارى إلى حين فى ضباب الغضب - وهكذا تتدخل بعض الآيات الكريمة لتكبح حماس اللحظات الاستثنائية البشرية التى تكاد تبعد النبى ﷺ قليلاً عن فطرته ؛ ليصبح النبى بفطرته ونور القرآن الكريم قرآناً يمشى على الأرض .

وكان موقفاً مشهوداً لرحمة النبى بأعدائه من المشركين فى يوم ضعفهم الكبير وهزيمتهم واستسلامهم يوم فتح مكة - وهم الذين عذبوه وآذوه بلا رحمة - حيث قال لهم قولته الخالدة :

« لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ومن أحداث فتح مكة السعيدة ، أنه عندما علم بنو هاشم بقرب محمد من مكة فرحوا ، وعندما حضر أبو سفيان وعبد الله للقائه -عليه السلام - رفض لأنهما قد أذياه فى مكة ، ولكن أبا سفيان هدد

---

(1) النحل : ١٢٦ .

بالهيام على وجـــهه هو وابنه حتى يموتا عطشاً وجـوعاً فرقّ له الرسول ﷺ .

فالشاهد فى أخلاقه - والتعليق لمحمد لطفى جمعة [1] - أنه دائماً كان يقسو فى أول الأمر مع العدل ثم يلين ، وكان هذا دأبه فى أشد المواقف ؛ فكان قلبه يرق دائماً بعد أن يصدر العقل حكمه ؛ فصفة الرحمة والشفقة كانت أظهر صفاته حتى على أشد أعدائه وخصومه .

* * *

(١) كتاب « ثورة الأنبياء » .

مع الأعداء من أهل الكتاب

- من كان رحيماً فى كبار الأمور كان أكثر رحمة فى صغارها .

- وكان موقف النبى الكريم من اليهود خاصة يبعث على الدهشة لمن ينظر إليه للوهلة الأولى ، فكيف صبر عليهم كل هذا الصبر ؟ وكيف عفا عنهم كل ذلك العفو ؟

- ترى . . . هل هو الدرس يقدمه لأحفاده ليعرفوا أن عداء اليهود للمسلمين والإسلام عداء ممتد بلا نهاية وأن حسن الظن بهم ، وحسن المعاملة معهم لا يجدى نفعاً مع قلوبهم الصلدة ؟!!.

وكفى قول الله تعالى فيهم وتحذيرنا منهم ، فهم أشد عداوة لنا من أهل الشرك ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوةً لِلَّذينَ آمنوا اليَهودَ والَّذينَ أشْرَكُوا** ﴾ (١) .

- ورغم ذلك كله قدّم النبى ﷺ المثل العالى فى الرحمة .

إننا لن نجد فى كتب الأولين مَنْ هم أشد كراهية والتواءً وخبثاً ودهاء وكيداً وعداء وحقداً من اليهود تجاه نبى الإسلام .

- ولن نجد كذلك فى الماضى والحاضر من هو أكثر رحمة من النبى ﷺ بهؤلاء الحاقدين، الذين عميت قلوبهم قياساً بما ارتكبوه ضده.

لكنه نبى ونحن لسنا أنبياء .

---

(١) المائدة : ٨٢ .

وكان - كقائد للأمة - يعمل للنصر وينتصر عليهم ، فأصبحوا هم الأذلاء، الذين ينتظرون رحمة النبى الكريم بهم . .

ونحن لسنا كهؤلاء المنتصرين المؤمنين .

وينطق التاريخ بأن اليهود قتلة الأنبياء وورثة العداء والحقد والقسوة ونقض المواثيق ؛ فما أفلحت مواثيقهم مع النبى ﷺ وغيره - .

فهل ينبت فى الملح ذلك الغَرْس.. الذى لا ينبت فى الأرض الطيبة؟!

موقف يتلوه ما يؤكده ؛ كأنما يقدم لنا النبى ﷺ المثل بعد المثل على أن رحمته بهم ومواثيقه معهم لم تُجد شيئاً - وكأنما يقدم لنا الرسول المعلم النموذج الأمثل للتعامل مع هؤلاء اليهود بأن تكون أيدينا فوق أيديهم ، وأن نمتلك ناصية القوة الحقيقية بكل معانيها .

لقد تعرض النبى ﷺ للقتل أكثر من مرة على يد اليهود ، فماذا كان عقابه لهم ؟

لقد كانت أحلام اليهود فى زمان النبى ﷺ هو اغتيال نبى الإسلام ، فما هى أحلامهم اليوم ؟!

بعد غزوة أحد وهزيمة المسلمين فيها ، نشط اليهود وقتلوا بعضاً من المسلمين غدراً وخيانة ، وما أعجب الحكاية - فبعد أن ادعوا أنه فى حاجة إلى من يفقههم فى الإسلام ؛ أرسل إليهم النبى ﷺ من يعلمهم؛ فقتلهم اليهود فى الطريق - وانتقاماً لما حدث قتل أحد المسلمين يهوديين ، وكان اليهوديان يحملان عهد أمان من النبى ﷺ ، ولذا كان عليه أن يدفع ديَّة الرجلين - وكانا من بنى عامر -

ولجأ النبى ﷺ إلى بنى النضير للوساطة بينه وبين بنى عامر فى أمر القتيلين ، فقالوا له :

« نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه» .

وكان أن خلا بعض بنى النضير إلى بعضهم وقالوا :

إنكم لن تجدوا الرجل - يقصدون النبى ﷺ - على مثل حاله هذه.

وكان النبى ﷺ قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فقرروا أن يُلقى أحدهم صخرة من أعلى البيت ، لتسقط على رأس النبى ﷺ وانتدبوا لذلك عمرو بن كعب ، الذى صعد إلى أعلى البيت لينفذ المؤامرة .

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، وتُعَد هذه المؤامرة نقضاً للعهد الذى كان بين النبى وبين بنى النضير ، فأمر النبى ﷺ بالتهيؤ لحربهم لاستهانتهم بالمسلمين، وخرج المسلمون لتأديبهم وحاصروهم ست ليال وحرقوا نخيلهم ؛ فدب الرعب فى قلوبهم ، وعبثاً انتظروا عون عبد الله بن أُبَىّ رأس المنافقين لهم ، فطلبوا من النبى أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وأن يسمح لهم بالانسحاب بدلاً من القتل والإبادة ، فأمَّنهم النبى على أنفسهم وترك لكل منهم قدراً من المال لا يتجاوزه فرحلوا وعلى رأسهم حُيَىّ بن أَخْطَبْ - عدا اثنين أسلما - وتركوا وراءهم مغانم كثيرة للمسلمين ، وذهب بعضهم إلى خيبر وبعضهم الآخر إلى الشام - لكن رحمة النبى بهم كانت مشهودة ظاهرة ، لأنه عفا عنهم وكان بمقدوره أن ينتقم منهم لما كادوه له وللمسلمين .

ونعود إلى ما بعد انتصار النبى ﷺ فى غزوة بدر ، وما عاناه من حقد يهود بنى قينقاع وكيدهم ونقضهم لما عاهدوا الرسول عليه ، لقد تعرضت امرأة مسلمة للأذى والسخرية على يد هؤلاء اليهود فى سوقهم، فثار أحد المسلمين الذين حضروا هذا الموقف ، وقتل هذا الذى أذى المرأة المسلمة فالتف حوله اليهود وقتلوه، وبدأت دائرة الثأر والانتقام فى الجانبين ، وطلب النبى ﷺ من اليهود أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يلتزموا بعهد الموادعة أو يصيبهم ما أصاب قريش فى غزوة بدر، وكان جوابهم يجمع بين الاستخفاف والتحدى ، فأصبحت محاربة اليهود والتصدى لهم ضرورة حتى يكفوا عن استخفافهم .

وقرر النبى ﷺ حصار بنى قينقاع فى دورهم لمدة خمسة عشر يوماً انتهت بإذعانهم لما يقضى به النبى ﷺ ، واستقر الرأى على إهدار دمهم، وقتل اليهود المحاصرين جميعاً .

- لكن عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان حليفاً ومواليا لبنى قينقاع - كما كان حليفاً - فى ظاهره - للمسلمين . . . تشفع لليهود لدى النبى فَعَدَلَ النبى ﷺ عن قرار القتل بأخلاق الرحمة النبوية ، وصفح عنهم بشرط أن يجلوا عن المدينة عقاباً لهم على ما اقترفوه ، فخرجوا منها مرغمين إلى وادى القِرى .

وفى غزوة الخندق :

تحالف يهود بنى قريظة - الذين يقطنون ضواحى المدينة مع قوات

الأحزاب ضد النبى ﷺ ظناً منهم بأن النصر حليفهم فنقضوا عهودهم مع النبى . . وبعد انتصار النبى على قوات الأحزاب (اليهود ، وقريش) كان من الطبيعى أن يعاقب هؤلاء الذين كرروا نقض عهودهم وعداءهم له . . فحاصر هو وجنده يهود بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة استسلموا بعدها . . ورحمة من النبى بهم وافق على أن يختاروا حكماً بينه وبينهم فاختاروا سعد بن معاذ - الذى كان حليفهم - .

وكان حُكم سعد فيهم قتل المقاتلين منهم ، وتقسيم أموالهم وسبى نسائهم وذراريهم ، وكان هذا الحكم استناداً إلى ما جاء فى كتابهم «التوراة » . . . تقول:

وعندما ينتهى بها الله ربك إليك ، فسوف تقضى على كل رجل بحد السيف ، أما النساء والأطفال والأغنام وكل ما فى المدينة حتى الغنائم فهو لك أنت وحدك ، وسوف تأكل غنائم أعداءك التى أعطاها لك الله .

- أما فى غزوة خيبر :

فقد دار قتال شديد بين قوات المسلمين ويهود خيبر ، الذين سقطت حصونهم وقلاعهم وبعد استسلام خيبر كلها - فى السنة السابعة من الهجرة - تعامل معهم النبى ﷺ من منطلق الرحمة وليس من منطلق القوة والقدرة والقهر والغلبة ، فحقق لليهود رجاءهم بأن يترك لهم أرضهم على أن يؤدوا للمسلمين جزية بمقدار نصف محصولاتهم وأفلتوا برقابهم .

ولا تهدأ مكائدهم . . .

ولا ينضب معين رحمته - عليه الصلاة والسلام - .

فبعد أن سكنت الحرب - فى غزوة خيبر - واستقرت الأحوال فى خيبر ، دعت اليهودية زينب بنت الحارث - بإيعاز من زعماء اليهود - النبى وبعض أصحابه إلى وليمة قدمت لهم فيها شاة مسمومة وتبصر النبى ﷺ بهذه المكيدة فنجا ، بينما مات صاحبه بشر بأثر السم بعد تناوله اللحم ، فدعا النبى ، هذه اليهودية وسألها عما فعلت فاعترفت.

ويقول بعض المؤرخين : إنه عفا عنها بعد أن أعلنت إسلامها .

* * *



الباب الرابع

صور أخرى من الرحمة



من أنوار الرحمة المحمدية

كان النبى ﷺ يزن نفوس الناس بميزان رحيم ، ويقدر الدوافع التى تحرك سلوكهم وتوجه أفكارهم أو تؤثر فيها .

وبميزان الرحمة كان يزن السلوك المنبثق من ضعف الإنسان بأثر بعض المشاعر الإنسانية المتشابكة والمتشعبة ؛ ومن ثم كان يتعامل مع الوجه الحسن للأشياء ويتغاضى عن وجهها القبيح ، فيفسر المواقف لصالح الإنسان وينتحل أعذار النجاة.

وكان ذلك شأنه - عليه الصلاة والسلام - مع حاطب بن أبى بلتعة، فعندما قرر النبى ﷺ أن يعد العدة - سراً - لمفاجأة قريش بفتح مكة قال :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » .

وعرف حاطب بن أبى بلتعة - وكان يسكن فى المدينة - بأنباء هذا الاستعداد ، وكتب إلى قريش كتاباً - يخبرهم فيه باستعدادات رسول الله ﷺ الحربية ؛ ثم أعطاه امرأة وحدد لها مكافأة على توصيل الكتاب الذى وضعته المرأة فى شعر رأسها ، ثم خرجت به وطوت الأرض طيّاً فى الطريق إلى مكة ، وأتى الرسول ﷺ الخبر من السماء قبل أن تبلغ به مكة ، وقرأ النبى ﷺ محتوى الكتاب وواجه حاطب بالأمر ؛ فقال حاطب :

« لا تعجل عليّ يا رسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدّلت ولكنى كنت امرأ مُلْصقاً فى قريش ، لست من أنفسهم ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم وأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى » .

لقد أراد - على حد قوله - أن يكسب له أنصاراً من كفار قريش بتسريب هذه الأخبار ، ليعطفوا على أهله وعشيرته هناك ، وربما صور له ضعفه أن هذا لا يؤذى المسلمين كثيراً - عندئذ قال عمر بن الخطاب: « دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق . فقال رسول الله ﷺ : إنه شهد بدراً ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فذرفت عينا عمر وقال : « الله ورسوله أعلم »

بينما عفا الرسول عن حاطب .

* * *

وبعد غزوتى حُنَيْن والطائف ، وفى مكة حيث بدأ توزيع الغنائم وتحديد موقف الأسرى والسّبايا ، كان بين السبايا امرأة - من قبيلة هوازن - تخطت الكهولة هى أخت النبى من الرضاعة وهى « الشيماء بنت الحارث » فأجزل النبى العطاء لها - براً ورحمة - وبسط لها رداءه لتجلس عليه ، وردها إلى قومها وفقاً لرغبتها - وزيادة فى تكريمه لها ، وللقوم الذين نشأت بينهم ، اتخذ قراراً رحيماً فى آلاف الأسرى -

فحين حضرت إليه وفود من هوازن وثقيف لإخلاء الأسرى ؛ أطلق فى الحال سراح جميع من وقعوا فى أسره الخاص ، والذين فى أسر أسرته، ثم أطلق سراح بقية الأسرى (ستة آلاف أسير) ، وكان أثر هذا القرار الحكيم الرحيم أثراً عظيماً وهو دخولهم الإسلام .

* * *

والنبى ﷺ ينظر إلى الخير نظرة عامة ، ويكافئ من فعل خيراً ، وإن وقع الخير فى زمان آخر غير زمان الدعوة الإسلامية ، وفى قصة عَدِى ابن حاتم الطائى خير شاهد ودليل ؛ كان عدى - وهو مسيحى - مشهوراً بالكرم وكان من أعداء النبى ﷺ ففر إلى الشام بعد انتصاره فى غزوتى حنين والطائف - وحين ذهب على بن أبى طالب ليهدم صنم طيء ، وعاد المسلمون بالغنائم والسبايا ومن بينها بنت حاتم الطائى - وأخت عدى - وعندما رأت النبى وهى فى محبسها - قالت له تسترحمه : « يا رسول الله هلك الوالد وغاب الرافد ، فامنن علىّ منّ الله عليك » (١) .

فمضى النبى ﷺ فى طريقه، لكنها عاودت الاستنجاد به، وذكرت ما كان لأبيها من مواقف الكرم النبيلة فى الجاهلية، فأمر بإطلاق سراحها وإكرامها؛ ثم رحلت إلى الشام، وأخبرت أخاها بما كان ، فرجع إلى النبى ﷺ ودخل الإسلام.

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام .

وكان تغيير البنيان الاجتماعى ، ونمط العلاقات الاجتماعية السائد بين الناس هو أحد الإنجازات الرائعة التى أهداها الإسلام ونبيه للبشرية ؛ وواقع الأمر أن الرحمة هى إحدى دعائم هذا التغيير الأساسية - ونتخذ لذلك مثلاً من إذابة الفوارق الطبقية بين السادة والخدم ومشاهير أشراف القوم والبسطاء منهم .

وكما تهب رياح التغيير على مختلف القبائل تهب على آل بيت النبى، فنذكر فيما نذكر حمزة .. أسد الله وأسد رسوله ، وعم النبى ﷺ الذى كان مقرباً إلى نفسه، فماذا فعل النبى به وبمولاه زيد؟..

بادر النبى ﷺ فى المدينة المنورة إلى المؤاخاة بين عمه حمزة وبين مولاه زيد بن حارثة ، الذى أعتقه حمزة هو وزوجته أم أيمن من العبودية - وما كان ذلك ممكناً أو معقولاً فى الجاهلية ، وكان الرسول بوسعه أن يختار شخصاً آخر - يؤاخى بينه وبين عمه - يقاربه فى المنزلة الاجتماعية ، لكن النبى ﷺ يقدم المثل بادئاً بنفسه وأهله .

وقد سعد حمزة بهذه المؤاخاة ، فقد علَّمه الإسلام أن الناس سواسية كأسنان المشط ؛ أما زيد ، فما أعمق فرحته وهو يجد نفسه أخاً لسيد من سادات العرب.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يعذر الآخرين إذا كانوا غلاظاً فى أقوالهم وأفعالهم ولا يرد عليهم بمثل غلظتهم ، وهذا من باب الحلم والرأفة والرحمة ، وقد حدث أنه اقترض بعيراً فجاء صاحبه يطلبه ،

فأغلظ القول للنبى ﷺ مما أثار غضب الحاضرين من الصحابة ؛ فهَمَّ بعضهم بالرجل وأراد أن يعاقبه على غلظته فمنعهم النبى ﷺ قائلاً :

« دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالاً » .

* * *

وتحكى فصول سيرته مع خدمه عن رحمته بهم ، وقيامه بأعمال كان يجب أن يقوموا بها للتخفيف عنهم ، برغم أن قيام خدمه بخدمته كان سعادة لهم وفرحة ، لكن رحمته بهم تأبى إلا أن يحمل عنهم بعض أعبائهم - ومن ناحية أخرى كان يروّح عنهم ويداعبهم ، يقول خادمه أنس : « والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشىء صنعته : لِمَ صنعت كذا وكذا ؟ أو لشىء تركته : هلا فعلت كذا وكذا » (١) .

* * *

وما أرحم محمد - عليه الصلاة والسلام - فى موقفه مع عبد الله بن أُبَى بن سَلُول رأس النفاق فى زمن الرسول ﷺ، وكان أكثر الناس حسداً وحقداً على الإسلام ونبيّه، وإن ادّعى الإسلام والإيمان، وقد نزلت فيه آيات من القرآن الكريم.

وفى أعقاب غزوة بنى المصطلق ، راح ابن سلول يشعل الفتنة بين المهاجرين والأنصار ، ويطلب من الأنصار أن يطردوا المهاجرين من المدينة ، ولما بلغ عمر ما قاله ابن سلول طلب من النبى أن يأمر بلالاً بقتله ، وعندئذ قال النبى ﷺ :

---

(١) رواه أنس .

« فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه»؟ .

وحاول ابن سلول أن ينفى ما قاله فكذبته آيات من القرآن الكريم فى سورة «المنافقون » (٧ ، ٨) - واستشعر ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول ، وكان مسلماً صادقاً أن النبى قد يأمر بقتل أبيه ، فخشى على نفسه أن يضطر إلى الثأر فيقتل قاتل أبيه ، ويرتكب إثماً عظيماً ، فلجأ إلى النبى وقال على كُرْهٍ منه - وقد أكّد أنه لا أحد أبر منه بوالده ابن سلول قال :

« إذا كنت لا بد فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإننى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار » .

إلى هذا الحد يقسو عبد الله الابن على نفسه وعلى مشاعره تجاه أبيه، فيطلب أن يتولى قتله حتى لا يقتل رجلاً مؤمناً فيقتله ثأراً . .

وكان جواب النبى ﷺ الحانى البلسم الرحيم لابن ابن سلول :

« بل نترفق به ، ونحن صحبته ما بقى معنا » (١) .

وقد شمل عفوه - عليه السلام - هؤلاء الذين أباح قتلهم مثل : وحشى الذى رمى حمزة بالسهم ، وهنداً التى لاكت كبده ، وعكرمة أحد كبار مشركى قريش ، وقائد الميسرة فى غزوة أحد . وما أرحم فعله - عليه

(١) سيرة ابن هشام ج٣ .

الصلاة والسلام - بصفوان بن أمية، وكان من أشد أعداء النبى هو وأبوه أمية ، فلما تم فتح مكة فرّ صفوان إلى ميناء جدة ليبحر إلى اليمين ، فجاء ابن عمه عُمَيْر بن وَهْب وقابل النبى ﷺ وقال له : يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً عنك ليقذف نفسه فى البحر فأمِّنه . فقال الرسول ﷺ : « هو آمن » .

قال عمير : يا رسول الله ، فأعطنى آية (أى دليلاً) يعرف بها أمانك . فأعطاه الرسول عمامته التى دخل بها مكة ، فخرج بها عُمير، حتى أدرك صفوان الهارب ، وهو يريد أن يركب البحر ، خوفاً من عقابه العادل .

فقال عمير : يا صفوان فداك أبى وأمى ، هذا أمان رسول الله قد جئتك به . قال صفوان : إنى أخافه على نفسى .

قال عمير : هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع صفوان وهو يتذكر جرائمه الكثيرة ضد المسلمين حتى وقف بين يدى النبى فقال صفوان مشيراً إلى عمير :

إن هذا يزعم أنك قد أمَّنتنى .

قال النبى ﷺ : « صدق » .

وقد وقعت كل هذه الصور النبيلة من العفو والتسامح والرحمة والنبى - عليه الصلاة والسلام - فى عنفوان مجده وقوته .

تُرى . . .

بعد هذه النفحات العبقة من الرحمة ومن الإنسانية العالية ، ألا ينطق المؤمن والجاحد معاً :

إن النبى ﷺ هو نبى الرحمة ؟!.

وإن نبضات قلبه ونور كلماته - صلوات الله عليه وسلامه - رحمة للعالمين .

تم بحمد الله .

* * *

الباب الخامس

نفحات



(١)

يا رسول الله أهلا
سوف نمضى فى رحابك
يا ترى ترضى وتأذن ؟؟
فبنا حب وأشواق إليك
. . إن من يحببك يأمن
وله النُّعمْى ، وأثمن
نحن نحتاج إلى أقباس ذكرك

* *

أنت فينا يا رسول الله موفور إذا عشنا بقولك
أنت فينا يا رسول الله موصول إذا لُذْنا بفعلك
أنت يا أغلى حبيب
نر دنيانا إلى يوم النشور
سيد الكون على مَرِّ الدهور
وأخيراً . . . تشهد الأعداء :
أول العظماء أنت فى كتاب العظماء
أول الرحماء أنت فى صفوف الرحماء

أنت فجر لنقاء لا يغيب

(٢)

مَنْ مِنَّا لم يُخطئ ؟

مَنْ لَم يَغْتر بدنيانا يوماً . . مَنْ سار على نهج العدل كما كان نبى الله؟

أو كان ابن الخطاب

من منا يبتعد عن الشبهات ؟

أحياناً . . نعرف أَنَّا أخطأنا بالأفعال وبالكلمات

أحياناً أخرى يلتبس الأمر علينا

مثلاً . . خطأ زينه الشيطان فَخِلْناه حلالاً . .

يبكون طويلاً ،

من خطأ لم يلفتهم

أَوْ مِنْ خوف ألا يقبل رب الكون عبادتهم

لكن . . لا ننسى أن الله رحيم فى الدنيا رحمن عند البعث

والتوبة طوق نجاةٍ . . بابٌ مفتوح لا يغلق يا إخوان

فهلموا ندخل ، فالتوبة باب للإيمان

نأمل أن يقبل توبتنا الديَّان

نستمع إلى أسوتنا

« إنى أتوب فى اليوم مائة مرة » (رواه مسلم)

. . . يا الله . .

إن كان نبيك توبته مائة مرة
كيف تكون إذن توبتنا ؟
ولماذا نتأخر عنها . . هل يملك إنسان عمره ؟!!

(٣)

تنطق بالرحمة كل الأشياء
عندما نمشى ، نسمع ، نتنفس ، نبكى ، نضحك
نأكل . . . نتحرك .
عندما نزرع ، نحصد ، نمرض ، نشفى ، نغفل ، ندرك .
صوت الرحمة ينطق ،
حتى فى الظلمة يتألق .
والقرآن بأيدينا ، نودعه القلب ليتعلم . . يتخلق
والقلب بنور الرحمة يشرق . .
وجزاء الرحمة رحمة . .
ننشد :
حبيب البرايا محمد
عليك الصلاة عليك السلام
رأيناك فى كل وقت وحين
رأيناك فى بسمة المُتْعَبِين
وفى غزوة النور للظالمين

وفى توبة الآثمين
رأيناك رغم مرور السنين
ضياء توهج فى أحرف العابدين
رجاء يعيد خطى التائهين
وفرحة طفل حزين
أوته القلوب الرحيمة
فتزرع فى قلبه الحب ، تنزع منه الهزيمة
يرى الكون رحباً جميلاً ، وفيض حنان
يرى الفجر فى وقته ليس يخلف وعداً ، وحتى الندى ، وحتى المطر
يعانق أوراق كل الشجر
ويحنو عليها ويغسل عنها الكدر
فما الطفل إلا الغد المنتظر
ويشكرنا الطفل عند الكبر
لأنَّا منحناه حباً ورحمة
ويسأل من أى نبع وحكمة
ترى جاء هذا الحنان ؟
أشرنا إلى سيد العالمين .
إلى من يعلمنا كل حين ،
بسيرته من وراء القرون

(٤)

مدرسة هو دين الإسلام
نتعلم فيها ما لا يوجد فى كتب الدنيا
نعرف أن رسول الله رسول الخير . . رسول الحب
ورسول حنان عزّ بهذا الزمن الصعب
لمّا كان يمر على بعض الصّبيان
وبصحبته بعض من أصحابه
بعد العودة من سفر طال
كان الصبيان يجيئون إليه فرحاً به
إعلاناً عن شوق فطرى يقفون على مقربة منه
تتملى أعينهم من نوره
لمّا أقبل . . . خاطب شيئاً فى داخلهم
فالطفل يحس بأسرع مما نشعر
قد لا تسعفه الألفاظ ، وقد يتلعثم
لكن أسارير الوجه تقول بأكثر مما نعلم
حركات الأيدى والأرجل ، إيقاع تعبيرى عما يكتم
ماذا فعل رسول الله ؟ . .
وقف عليهم .
يحمل هذا الطفل وذاك ، بأشرف أيدٍ يرفعهم

زغردت الفرحة فى أعينهم
أوصى الأصحاب بهم
حملوا بعضاً منهم
وتدفقت الفرحة أنهاراً بين الأطفال

(٥)

الرحمة صور شتى
هى أحياناً نظرة عين حانية ، تُلْقِى فى نفس الآخَر ضوء رجاء وبصيص مَسرّة ،
طوبى يا أحباب لمن ينشر فوق الآخَرِ أجنحة الرحمة
ومَنْ يُرِد عليه أن يبادر
فرحلة الحياة رحلة من العطاء
ما أكثر الذى نعطيه للصحاب
ما أكثر الذى جاد به الأحباب
علّمَنَا الرسول للرحمة ألف ألف باب
ونحن من ضيائه نلتمس الأسباب
يسأل كُل نفسه : ما اقترفت يداه ؟
نبدأ بالسؤال ثم بالحساب . .
وقد تطهرت عيوننا من الوعيد

لا غيبة نغتاب
وإنما حروفنا دواء
. . . ذكر وحكمة بلا ادّعاء . .
طعامنا حلال . .
لا يستضيف جوفنا الشيطان
لا نحرق العروق والأحشاء
نعرف أن الرشوة امتهان
فما الذى يدريك يا عجلان ؟
بأن رزقك الكريم
مضاعف مضاعف غداً إذا صبرت
إذا رفضت السُّحْت
ما أتعس المال القمامة ؟!

* *

صبراً يا أحباب
من يبتسم أخيراً ينجح
من يعرف أن النفس بتقواها تُكْبَح
لَّما أزهار الخير بها تصدح
طاقات الرحمة تتفتح
نرحم أنفسنا بالحمد

نسأل مولانا بسؤال نبى الرحمة
نسأله أن يهدينا ويُنَقّينا

(٦)

الرحمة . .
كمياه النهر الفياضة ، تسقى حتى الغرباء
فيرق القلب القاسى ، يتدفق بالخير
حتى لو طمسته لبعض الوقت الأنواء
يخشى أن يبتعد عن الله ، ويذكر ما قال رسول الله :
« إن أبعد الناس عن الله القاسى القلب » .
فيفيق القلب الجافى ، ما أحلى طعم الرحمة ، فالرحمة حب
إن تكن القسوة من فعل الشيطان
فلنتعوّذ بالله من الشيطان

* *

أن نشكو من فرقتنا وتمزقنا
هذا يعنى . . منسوب الرحمة لا يكفى يا إخوتنا
فمتى ينشغل الناس بأحوال الناس ؟!
ويكون رسول الله هو النبراس
نتوحد . . نتكافل . . فى السراء وفى الضرّاء
عندئذٍ . . سيقَبِّل أيدينا الأعداء

تمتد يد الأرض إلينا . . باركها الله ، فتعطينا نبتاً روَّاه الحب ، فيخشانا مَنْ نخشاه من المخلوقات .

(٧)

حبيب الوجود
تعاليمه بيننا خالدة
وصاياه تنبض فى الأفئدة
وعبر مئات السنين
وصاياه ميراث حب ورحمة
فصلوا عليه النبى الأمين
وكونوا كما شاءنا أن نكون
قلوباً من الخير والبر
ودعوة حِلْمٍ وبِشْر

(٨)

لو كنت جائعاً ، فالجوع بعض ما تعطيه
لو كان نهرك ظامئاً ، تعساً لظامئ يأتيه
سل نفسك هل عالجت خواء القلب ، كما عالجت شرايينك ؟!
أحدٌ لن يسألك الرحمة بالناس وقلبك مسكون بالدنيا
فارحم نفسك ثم ارحم غيرك ، لا تضرب أخماساً فى أسداس .
فرسول الله هو النبراس

نقرأ سنته ونعيش بهدْيه
فلنسأل رب الكون ليلهمنا الطاعة والتقوى، نصبح من أحباب الرحمن،
وأحباب حبيب الرحمن محمد
يا نفس . . رحماك . . ارتدعى ، فالموت على الأبواب
انتبهى . . كونى فى وادٍ آخره بسمة ،
بدلاً من أضواء تلقى بكِ فى جب النقمة
ماذا ينتظر الإنسان ؟!
والنفس هى الميدان
واللعبة تبدأ من داخلنا

(٩)

فى بحر الرحمات
تمضى أيام العمر
نرحم أنفسنا فنطهرها ، نحجبها عن هالات السوء
وإذا نمنا نحلم بالرحمة . . نُصْبِح . . تُصْبح دستوراً تكتبه الأفعال

❊ ❊

حتى آخر يوم فى عمر الكون ، وفى يوم الهول تشملنا رحمته ﷺ
يقف شفيعاً . . يتشفع لى . . يتشفع لك ، يتشفع للأجداد وللأحفاد ،
شفاعته رحمة .

❊ ❊

يا شفيعاً . . يا رحيماً
إن تبعناك نجونا
إن عرفناك أطعنا
تُطْلَق الأحلام من أقفاصها حلماً فحلماً
يغرب الظلم كسيفاً مستذلا
يطرح الحنظل فُلا
تطرح الأرض أماناً ، يتنادى ألف صوت للبراءة
ويقول الشاعر فيه :

هو البشـــير بجـنات ومرحـمة   هو النذير بما أعددت من حِـكَمِ
وكان ســـيد أهـليه وأرحـــمهم   بالناس بل هو زَيْن الخَـلْق كلهمِ
قد قلت عنه حـبيبى ثم قلت له   أنت الشفيع غداً فى سائر الأممِ

(١٠)

فى الكوفة . . كان الشيخ كبيراً أعمى تنزف منه دماء إثر دماء ، تتواكب فيه الأدواء
وينادى فى نزع الألم الضارى : أحمدك إلهى ، أشكر ما قد أعطيت .
قالوا للشيخ : بلاياك أحاطتك . .
ما تركت بعضاً منك
فأجاب الشيخ : ولكن لم يحرمنى الله لسانى فليذكرهُ
لم يحرمنى قلبى فليشكرهُ
فالله رحـــــيم بعباده . .

مهما كلَّفهم يعطيهم أكثر
إلا أن العين كثيراً ما لا تبصر
وأضاف الشيخ الأعمى :
القلب وقد فارق أهواء الدنيا . . عرف السر الأبدى فما حاد عن الحق
ما أصدق قولك يا شيخ ! .
فى وقت آخر . فى بلد آخر . . كان الشاعر فوق سرير أبيض
يقضى أعواماً من ألم لا يهدأ
أدرك ما لم يدركه أصحاء فى دور اللهو ، وفى البيت وفى الشارع .
قال السّياب الشاعر :

« لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبد الألم
لك الحمد إن الرزايا عطاء
وإن المصيبات بعض الكرم »

* * *

نطمع فى الله الأكرم
أن يرحمنا الله بما نتألم
أن يرحمنا مما نتألم

* * *

المحتوى

* * *